الارتقاء بالكتابة

تأليف

د. محمد بن إبراهيم الحمد

دار ابن خزيمة

ⓒ دار ابن خزيمة للنشر والتوزيع، ١٤٣٢هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الحمد، محمد إبراهيم

الارتقاء بالكتابة/ محمد إبراهيم الحمد - ط٢.- الرياض، ١٤٣٢هـ

١٣١ص ؛ ١٤×٢١سم

ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٨٠٣١-١٩-٣

١- النثر العربي -- العصر الحديث أ- العنوان

ديوي ٨١٩.٩ ٣٧٨٢/ ١٤٣٢

رقم الإيداع: ٣٧٨٢/ ١٤٣٢

ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٨٠٣١-١٩-٣

جميع الحقوق محفوظة

دار ابن خزيمة للنشر والتوزيع

الطبعة الثانية

١٤٣٢هـ/٢٠١١م

المملكة العربية السعودية – الرياض - الملز

شارع الأحساء – غرب حديقة الحيوان

☎ ٤٧٦٩٩٣٢ فاكس: ٤٧٦٠٧٩٥

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي خلق الإنسان، وعلمه البيان، والصلاة والسلام على أفضل العرب لهجة، وأصدقهم حجة، وعلى آله الأمجاد، وصحبه الذين فتحوا البلاد، ونشروا لغة التنزيل في الأغوار والأنجاد، وحببوها إلى الأعجمين حتى استقامت ألسنتهم على النطق بالضاد، أما بعد:

فإن شأن القلم لجلل، وإن أمر الكتابة لعظيم؛ كيف لا، والله -عز وجل- قد علم بالقلم، وأقسم بالقلم.

قال - جل ثناؤه -: ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥) ﴾ العلق.

وقال: ﴿ ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (١) ﴾ القلم.

كفى قلم الكُتَّاب مجداً ورفعة مدى الدهر أن الله أقسم بالقلم

ولا ريب أن الحديث عن الكتابة متشعب طويل، والمقام ههنا لا يسمح بالتفصيل، وإنما هي إشارات عابرة هي أشبه بالمعالم العامة للكتابة الرصينة النافعة، وليست بالضرورة حديثاً عن البحث، وطرائقه.

وقد أَفَدْتُها من خلال التجربة اليسيرة، ومن خلال ما مرَّ بي من كلام العلماء وأكابر الكتاب الذين حاموا حول هذا المعنى[١]؛ فأحببت تقييد شيء من ذلك ونشره؛ رغبة في عموم النفع.

وإن من أعظم البواعث إلى ذلك كثرةَ الأسئلة عن طريقة الكتابة، وأدواتها، وسبل الترقي فيها.

ومن البواعث ـ أيضاً ـ ما يراه المتأمل من نفسه ومن غيره من كثرة الأساليب المتخاذلة، والكتابات الركيكة أو المتكلفة.

وقبل الدخول في تفاصيل الموضوع يحسن التنبيه على أن صناعة الكتابة ليست كغيرها من الفنون التي لها قواعدها المضبوطة، ومسائلها المدوَّنة فيتدارسها الكتاب، فتنتهي بهم إلى إمداد اليراعة بالبراعة.

ولكن ثَمَّةَ تنبيهات ترشد إلى الجهات التي تنمو بها قوى التفنن في تصاريف الألفاظ، والتأنق في تحسين هيئاتها التأليفية.

---

١ ـ انظر على سبيل المثال إلى مقدمة أدب الكاتب لابن قتيبة ص٥ـ٢٠. وكتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري. وأدب الكُتَّاب للصولي. والمثل السائر لابن الأثير ٣/١ـ٣١. ومقدمة المنفلوطي لمختاراته. والسعادة العظمى لمحمد الخضر حسين ص٧٣ـ٧٥. و ١١٣ـ١١٦، و ١٥٤ـ١٥٦، والمذكرات لمحمد كرد علي ص١١٩٢ـ١١٩٣، إلى غير ذلك مما سيرد ذكره في غضون هذا الكتاب.

أما أسلوب المرء فهو الذي يخترعه صاحبه؛ فيكون عليه طابَعُهُ؛ فهو ابن مزاجه وتربيته، وبيئته، وذوقه، وفنه.

فالمعاني مطروحة، والألفاظ مطروقة، وإنما العبرة بالتراكيب، والتراكيبُ ابنةُ مَنْ يصوغها؛ فيزيدها جمالاً علمُ الكاتب، ووفرة اطلاعه، وأدب نفسه، واستكمالُه أدواتِ الكتابة.

ولا تجود الكتابة إلا بما تحمل من الألفاظ، وبما تنطوي عليه من المعاني، وبالتلطف في أدائها، واطراح التكلف في إحكام نسجها.

وملاك ذلك كلِّه ـ كما يقول ابن الأثير ـ الطبع؛ فإنه إذا لم يكن ثَمَّ طبع فإنه لا تغني الآلات شيئاً.

ومثال ذلك كمثل النار الكامنة في الزناد، والحديدة التي يُقدح بها؛ ألا ترى أنه إذا لم يكن في الزناد نارٌ لا تفيد تلك الحديدة شيئاً؟!

وعلى هذا فإذا ركَّبَ الله ـ تعالى ـ في الإنسان طبعاً قابلاً لهذا الفن ـ فإنه يحتاج إلى الأخذ بعدد من الأسباب التي ترتقي بكتابته، وتجعلها مؤدية لغرضه.

فهذه ـ في الجملة ـ أصول الكتابة، وعوامل كونها نافعة خالدة ـ بإذن الله ـ.

وفيما يلي من صفحات شيء من البسط والتفصيل في ذلك، والله المستعان، وعليه التكلان.

محمد بن إبراهيم الحمد

الزلفي: ص.ب: ٤٦٠

ط١: ١/٥/١٤٢٧هـ

ط٢: ٤/١٢/١٤٣١هـ

جامعة القصيم -كلية الشريعة والدراسات الإسلامية-

قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة

www.toislam.net

alhamad@toislam.net

ما جاء في وصف القلم وتعظيم شأن الكتابة

مرَّ في المقدمة شيء من ذلك، وفيما يلي ذكر لبعض ما جاء في وصف القلم، وتعظيم شأن الكتابة نثراً وشعراً، ومما جاء في ذلك ما يلي:

١ـ قال أحمد بن يوسف: «القلم لسان البصر يناجيه بما استتر عن الأسماع إذا نسج حلله، وأودعها حكمه».

٢ـ وقال ابن المقفع: «القلم بريد القلب».

٣ـ وقال أبو دلف: «القلم صائغ الكلام، ويفرغ ما يجمعه العلم».

٤ـ وقال الجاحظ: «الدواة منهل، والقلم ماتح، والكِتَاب عطن».

٥ـ وقال سهل بن هارون: «القلم أنف الضمير إذا رعف أعلن أسراره، وأبان آثاره».

٦ـ وقال عمرو بن مسعدة: «الأقلام مطايا الفطن».

٧ـ وقال المأمون: «لله در القلم كيف يحوك وشْي المملكة».

٨ـ وقال جالينوس: «القلم طبيب المنطق»، فوصفه من جهة صناعته.

٩ـ وقال أفلاطون: «الخط عقال العقل».

١٠ـ وقيل: «القلم أحد اللسانين».

١١ـ وقيل: «القلم صائغ الكلام؛ يفرغ ما يجمعه القلب، ويصوغ ما يسكبه اللبّ».

١٢ـ وقال جعفر بن يحيى: «لم أرَ باكياً أحسن تبسماً من القلم».

١٣ـ وقال أحمد بن عبدالله: «القلم راقد في الأفئدة، مستيقظ في الأفواه».

١٤ـ وقيل: «عقول الرجال تحت أسنة أقلامها».

١٥ـ وقال العتابي: «الأقلام مطايا الأذهان».

١٦ـ وقال عبدالحميد الكاتب: «القلم شجرة ثمرتها الألفاظ، والفكر بحر لؤلؤه الحكمة».

١٧ـ وقيل: «بِريّ القلم تروى القلوب الظَّمِئة».

١٨ـ وقال آخر: «مساق أمر الدنيا بسين وقاف، فيقال: سق» يريد السيف والقلم.(١)

١٩ـ وقيل: إن أفضل ما قيل في وصف القلم من الشعر قول أبي تمام في مدحه لمحمد بن عبدالملك الزيات:

لـك القلـمُ الأعـلى الـذي بِـشَبَاته تُصاب من الأمر الكُلى والمفاصلُ(٢)

---

١ ـ انظر أدب الكُتَّاب للصولي تحقيق العلامة محمد بهجة الأثري ص٦٧و٦٨ و٧٥، والتمثيل والمحاضرة للثعالبي ص١٥٥ـ١٥٧.

٢ ـ الشَّباة: حد القلم، وقوله: «تصاب من الأمر»، روى ـ أيضاً ـ: «ينال من الأمر»، والكُلى: جمع كُلْية وكُلوة، جاء بالياء والواو، والمفاصل: جمع مفصل وهو ملتقى كل عظمين، أراد أن القلم يطبق المفصل، ويصادف المَحَزّ. وبه ينال مقاصد الأمور؛ فإنه ينال بالأقلام ما يعجز عنه مجالدة اللسان.

لــه الخلــواتُ الــلاءِ لــولا نَجِيُّهــا لما احتفلت للمَلْكِ تلـك المحافـلُ[١]

لُعَــابُ الأفــاعي القــاتلاتِ لُعابُــه وأَرْيُ الجَنَى اشتارتْه أيـدٍ عواسـلُ[٢]

لـــه ريقَـــةٌ طَـــلٌّ ولكـــنّ وَقْعَهـــا بآثـاره في الـشرق والغـرب وابـلُ[٣]

فـصيحٌ إذا اسـتنطقْتُه وهـو راكـبٌ وأعجـمُ إن خاطبتـهُ وهـو راجـلُ

إذا ما امتطى الخمس اللطاف وأفرغت عليه شعاب الفكر وهـي حوافـل[٤]

---

١ ـ يعني أن أصحاب القلم هم أهل المشورة، وموضع السر يُخْلي لهم الملوك المجالس للمشورة، وبهم يَحْصُل نظام الملك، والنجي: المسارر، والتناجي: المسارَّة، وأراد به المشير؛ فإن المشورة تكون سراً غالباً، والاحتفال حسن القيام بالأمور، والمحافل جمع محفل كمجلس ومقعد وهو المجتمع.

٢ ـ اللعاب: ما يسيل من الفم، والقاتلات صفة كاشفة للأفاعي ذكَرها تهويلاً، والأَرْيُ: ما لزق من العسل في جوف الخلية، والجَنَى: العَسَل، واشتارته: استخرجته، وأيدٍ: جمع يد، وعواسلُ: جمع عاسلة أي مستخرجة العسل، والعاسل مُسْتَخْرِجُ العسل من موضعه، والمصراع الأول بالنسبة إلى الأعداء، والثاني بالنسبة إلى الأولياء؛ يعني أن لعاب قلمه بالنسبة على الأعداء سم قاتل، وبالنسبة إلى الأولياء شفاء عاجل.

٣ ـ الطل: المطر الضعيف، والوابل: المطر الشديد الفخم القطر.

يقول: إن ما يجري من القلم حقير تافه في ظاهر الأمر، لكن له أثرُ خيرٍ عم المشارق والمغارب.

٤ ـ أراد بالخمس اللطاف الأصابع الخمس، والشِّعاب: جمع شِعْب وهو الطريق في الجبل، والحوافل جمع حافلة، يقال: حفل اللبن وغيره حفلاً وحفولاً: اجتمع، واحتفل الوادي: امتلأ وسال.

أطاعته أطراف الرماح وقوضت لنجواه تقويض الخيام الجحافل[١]
إذا استغزر الذِّهْنَ الذكيَّ وأقبلت أعاليه في القرطاس وهي سوافل[٢]
وقد رفدته الخنصران وسددت ثلاث نواحيه الثلاث الأنامل
رأيت جليلاً شَأْنُهُ وهو مرهف ضنىً وسميناً خطبه وهو ناحل[٣][٤]

---

١ ـ قوله أطاعته أطراف الرماح الخ: هو جواب إذا، وروي أطاعته أطراف القنا وتقوضت، يقال: تقوضت الصفوف إذا انتقضت، وأصله من تقويض البناء وهو نقضه من غير هدم، والنجوى: السر، وتقويض أي كتقويض الخيام الجحافل: فاعل قوضت، وهو جمع جحفل وهو الجيش.

٢ ـ قوله استغزر الذهن: أي وجده غزيراً، وفاعله ضمير القلم، والذكي المتوقد، وروي الخلي بَدَلَهُ، والخلي: الخالي، وإنما تكون أعالي القلم سوافل حين الكتابة.

٣ ـ رأيت: جواب إذا وشأنه فاعل جليلاً، وجملة وهو مرهف: حال، وهو اسم مفعول من أرهفت السيف ونحوه إذا رققت شفرته، وضنىً: تمييز، وهو مصدر ضنى من باب تعب إذا مرض مرضاً ملازماً، وسميناً: معطوف على جليلاً، وناحل من نحل الجسم ينحل بفتحهما نحولاً سقم، ومن باب تعب.

٤ ـديوان أبي تمام ٥٧/٢ـ٥٨، وانظر أدب الكُتَّاب ص٧٥ـ٧٧، ولهذه الأبيات قصة طريفة؛ قال ابن عبدوس: وجدت بخط أبي أحمد إسماعيل حدثني محمد بن علي ابن سعيد الطبري وأخوه إبراهيم بن علي ـوأُمهما أخت محمد بن عبد الملك الزيات ـ قالا: جاءنا حبيب بن أوس الطائي يعني أبا تمام بقصيدته التي يقول فيها:

لك القلم الأعلى الذي بشباته تصاب من الأمر الكلى والمفاصل

=

= فَسَأَلنَا أن نعرضها على محمد، وأن نتوخى بها وقتاً تكون نفسه طيبة فيه: فتوخينا ذلك الوقت، وأوصلنا القصيدة، فقرأها من أولها، وتوقف على أكثرها، ثم قال: الطائي جيد الشعر، إلا أنه يهجّن شعره بأنه يمتدح السُّوقة بما يمدح به الملوك، فيعطي السوقيَّ أكثر من حقه، ويبخس الملك حقه إذا أعطى السوقي ما يعطيه، ثم قلب القرطاس وكتب شيئاً في ظهره، وقال: إذا جاء فادفعوه إليه، فقرأنا ما كتبه فإذا هو:

رأيتك سمحَ البيعِ والعِلقُ إنما يغالي به إن ضنَّ بالعلق بايعه
وأحرِ بمن هانت بضائعُ مالِه لدى البيع يوماً أَن تبور بضائعه
هو الماء إن أجممته طاب وِردُه ويفسده أن تستباح شرائعه

فلما جاء الطائي أعلمناه أنا قد أوصلنا شعره، فلم يشك أن معه جائزة قال: فأين الجائزة؟ قلنا: خذها، ودفعنا القرطاس إليه.

فلما قرأه قال: الله الله، قد رضيت من جائزته أن تكتما هذا الشعر؛ فإنه إن انتشر أفسد عليَّ عمود الصناعة، وكان لبخلاء الملوك مثله -أعزه الله- حجة.

قلنا: وتهجوه؟ قال: ما أدير لساني بهجائه، ولكني استفدت مما وصلني به، فحكينا ذلك لمحمد، فضحك، وبعث إليه بمائتي دينار.

وفي رواية أن محمد بن عبدالملك عاتب أبا تمام واحتج عليه بأنه مدح غيره، وأنه لو اقتصر عليه أغناه، وأن كثرة مدحه للناس زهَّدته فيه، وكتب إليه الأبيات الثلاثة، فكتب إليه أبو تمام:

أبا جعفر إن كنتُ أصبحتُ شاعراً أُساهل في بيعي له من أُبايعه
فقد كنتَ قبلي شاعراً ذا رواية تساهل من هانت عليه بضائعه
وصرت وزيراً، والوزارةُ مشربٌ يَغَصُّ به بعد اللَّذاذة كارعه
وكم من وزير قد رأينا مسلطاً رأيناه قد سُدَّت عليه مطالعه
ولله قوس لا تطيش سهامها ولله سيف لا تُفلُّ مقاطعه

انظر أمراء البيان ص٢٩٣-٢٩٤.

١٦ـ وقال الفضفاضي :

في كفـــه أَخْـــرَسُ ذو منطـــقٍ بقافــــه والــــلام والمـــــيم
شـــبرٌ إذا قـــيس ولكنـــــه في فعلـــــه مثـــل الأقــــاليم
مُحَـــرَّفُ الـــرأَسِ ومُـــسَوَدُّه كـــإبرة الـــروس مـــن الـــريم[1]

١٧ـ وقال غيره في وصف كُتَّاب :

ولأقلامهـــم زئـــير مهيـــب يُـــزدرى عنـــده زئـــيرُ الأســـود[2]
أَرْغَبَـــتْهُمْ عـــن القَنـــا قـــصَبَات مغنيـــات عـــن كـــل جـــيش مقـــود
والقـــراطيسُ خافقـــاتٌ بأيديـــ ـهِمْ كمرهوبِ خافقـاتِ البنـود[3][4]

١٨ـ وقال الأستاذ محمد كرد علي رحمه الله : « والكتَّاب ـكما يقول ابن قتيبةـ : هم ألسنة الملوك ، إنما يتراسلون في جباية خراج ، أو سد ثغر ، أو عمارة بلاد ، وإصلاح فساد ، أو تحريض على جهاد ، أو احتجاج على فئة ، أو دعاء إلى أُلفة ، أو نهي عن فرقة ، أو تهنئة بعطية ، أو تعزية برزية ، أو ما شاكلها من جلائل الخطوب ، ومعاظم الشؤون

---

١ ـ أدب الكتاب ص٧٨.
٢ ـ الزئير : صوت الأسد من صدره كالتزؤر على تفعل.
٣ ـ البنود : جمع بند وهو العلم الكبير.
٤ ـ أدب الكتاب ص٧٩.

التي يحتاجون فيها إلى أن يكونوا ذوي آداب كثيرة، ومعارف مُفننة». [١]

١٩ـ ومن آخر ما وقفت عليه في وصف الكتابة والقلم قول الشاعر الشاب القاضي محمود العمراني [٢]؛ قال في وصف الكتابة:

سبحان من جعل الكتابة بلسماً ... لجراحنا وأمدَّنا بالأحرف
مُتَنَفَّساً من كل ضيق مرهقٍ ... وسلامةً من كل هم متلفِ
تحنو فنودعها ذواتَ صدورنا ... وتَرِقُّ في أدبٍ وحسن تلطُّفِ
فإذا تَنَكَّر بالصدود أخو هوى ... أو خان حِبٌّ في مودته تفي
كم ليلة عَطَفت علي ببوحها ... قد ذقت كأس الموت لو لم تَعْطفِ
ورشَفْتُ من سُبحاتها وجمالها ... يا حسن مغناها وعذب المرشفِ
لا شيء يفتنني كمنظر صفحة ... بيضاء تلمع مثل قاعٍ صفصفِ
ما جئتها إلا وحيَّت طلعتي ... هذا مدادُ الروحِ دونك فاغرفِ
واكتب فما لك غير شعرك صاحب ... هو حافظ الأسرار والخل الوفي
في ليلة ما كاد يطلع صبحها ... تمتد في قلبي كحد المرهف
وهوىً يذيب الراسيات كتمته ... عن سمع كل موافق ومُعَنِّفِ

١ ـ أمراء البيان ص٢٥.

٢ ـ انظر كتابي ومضات ـ ومضة في الزوايا خبايا ـ ففيها نبذة عن هذا الشاعر، وشيء من شعره.

وقال -حفظه الله- في قلم له ضاع :

أواه يـــا قلـــماً فجعـــت بفقـــده   مـــن بعـــد عـــشرته وطـــول بقائـــه
أثقلـــت كاهلَـــه بفـــيض خـــواطري   وســـقيتُ بـــستانَ المنـــى مـــن مائـــه
مـــا زلـــتُ أرهقُـــه بطـــول كتـــابتي   وأراه يغـــــدقُني بطـــوْل عطائـــــه
ويـــسيرُ فـــوقَ الـــسطرِ ســـيرَ كتيبـــةٍ   ويـــشقُّ كـــلَّ بديعـــةٍ بعطائـــه
وَيَحُفُّـــه عـــزمُ الفـــؤادِ وفكـــرُه   مـــن فوقـــه وأمامِـــه وورائـــه
يـــصغي إلي فـــلا يَـــشِحُّ بدمعـــه   فأنـــا أعـــيش عـــلى لحـــون بكائـــه
حتـــى إذا اســـتوثقت مـــن إيمانـــه   بقـــضيتي ورأيـــتُ حـــسنَ بلائـــه
وعرفـــت منـــه محبتـــي وحبتـــه   وبلـــوتُ صـــدقَ ولائـــه ووفائـــه
وجعلـــت منـــه سادســـاً لأصـــابعي   وزرعتـــه في الـــصدر مـــن أحنائـــه
سَـــلَبَتْهُ منـــي العاديـــات بليلـــة   مـــا كـــاد يطلـــع صُـــبْحُها بـــضيائه
فأنـــا عَيِـــيٌّ منـــذ أن فارقتـــه   وأنـــا بـــلا كـــف ليـــوم لقائـــه

أسباب الارتقاء في الكتابة

أسباب الارتقاء في الكتابة

هناك أسباب عديدة تنهض بصناعة الكتابة، وتجعلها محمودة مستطابة؛ وترفع الكاتب مكاناً عَلِيّاً، وتبلغ به في البراعة أمداً قصياً؛ فإلى تلك الأسباب التي ربما يدخل بعضها ضمن بعض.

١ـ حفظ القرآن الكريم، والإكثار من تلاوته وتدبره

فعلاوة على كون ذلك عبادة ـ فهو كذلك يقوي ملكة البيان؛ لما جاء به من صور النظم البديع، والتصرف في لسان العرب على وجه يملك العقول؛ فإنه جرى في أسلوبه على منهاج يخالف الأساليب المعتادة للفصحاء قاطبة؛ وإن لم يخرج عما تقتضيه قوانين اللغة؛ فهو الذروة في البلاغة، وفيه اللفظ الجزل، والأسلوب الذي لا يدانيه أسلوب، وفيه الجمال، والجلال، والبهجة، والرهبة، والعصمة من الخطأ.

ولقد اتفق كبراء الفصحاء على إصابته في وضع كل كلمة وحرف موضعه اللائق به، وإن تفاضل الناس في الإحساس بلطف بيانه تفاضلهم بسلامة الذوق، وجودة القريحة.

فأسلوب القرآن فوق كلِّ أسلوب، وأسمى من كل كلام.

ولم يعهد العربُ مثلَه في نظام القول وترتيبه، وما استطاعت ـ على كثرة فصحائها في وقت نزوله ـ أن تحتذي مثاله في أسلوبه، وأداء معانيه.

وقد أريدو على ذلك، وتُحُدُّوا عليه.

والقرآن حسن ملكةَ الكتابة، والخطابة، كما كان تأثيره في الشعراء؛ فجاء الشعر الإسلامي أرق من الشعر الجاهلي.[١]

قال ابن الأثير رحمه الله في معرض حديثه عما يحتاجه الكاتب: «حفظ القرآن الكريم، والتدرب باستعماله، وإدراجه في مطاوي الكلام»[٢].

ثم قال رحمه الله معللاً ذلك: «فإن صاحب هذه الصناعة ـ يعني الكتابة ـ ينبغي له أن يكون عارفاً بذلك؛ لأن فيه فوائد كثيرة، منها أنه يُضَمِّن كلامه بالآيات في أماكنها اللائقة بها ومواضعها المناسبة لها.

ولا شبهة فيما يصير للكلام بذلك من الفخامة والجزالة والرَّونَق.

ومنها أنه إذا عرف مواقع البلاغة وأسرار الفصاحة المودَعَة في تأليف القرآن اتّخذه بَحْراً يستخرج منه الدرر والجواهر، ويودعها مَطَاوي كلامه، كما فعلته أنا فيما أنشأته من المكاتبات، وكفى بالقرآن الكريم وحده آلة وأداة في استعمال أفانين الكلام؛ فعليك أيها المُتَوشِّح لهذه الصناعة بحفظه، والفحص عن سره وغامض رموزه وإشاراته؛ فإنه تجارة لن تبور، ومنبع لا يغور، وكنز يُرجع إليه، وذخر يُعَوّل عليه»[٣].

---

١ ـ انظر أمراء البيان ص١٣.

٢ ـ المثل السائر لابن الأثير ١ـ١٠.

٣ ـ المثل السائر ١/٣٠ـ٣١.

٢ـ الإكثار من مطالعة كتب السنة

كالكتب الستة وغيرها من الصحاح والمسانيد؛ فهي تمد الكاتب بالأساليب البيانية الراقية، وترفد مادته اللغوية والشرعية، فالنبي ﷺ أوتي جوامع الكلم، ودانت له نواصي البلاغة، ودنت له قطوف الحكمة، وتفجرت من أقواله ينابيع الفصاحة؛ فهو يتكلم بالسهل الممتنع، وبالألفاظ المعبرة المأنوسة المشتملة على الرقة، والمتانة، والإبانة عن الغرض بدون تكلف.

والأمر في ذلك يجري مجرى القرآن الكريم ـ كما تقدم ـ.

٣ـ مطالعة دواوين العرب في الشعر، وحفظُ ما تيسر منها

كأشعار الجاهليين وخصوصاً أصحاب المعلقات، وكأشعار المخضرمين كحسان وغيره، وأشعار الذين نشأوا في عصر صدر الإسلام كعمر بن أبي ربيعة، والأخطل، والفرزدق، وجرير، والراعي النميري، وذي الرمة.

وأشعار العباسيين كبشار وأبي تمام، والبحتري، والمتنبي، وابن الرومي، وأشعار الأندلسيين كابن زيدون، وابن دراج القسطلي، وغيرهما.

ومما يفيد في هذا قراءة كتابي المفضليات للمفضل الضبي، والأصمعيات للأصمعي عبدالملك بن قريب، فهما مليئان بالقصائد الرائعة الرائقة.

وكذلك جمهرة أشعار العرب لأبي زيد القرشي، والشعر والشعراء لابن قتيبة.

وكذلك دواوين المعاصرين كالبارودي، وشوقي، وحافظ، وغيرهم.

٤ـ العلم بالنحو والصرف

فالنحو: هو ما يبحث في الجملة العربية، وفي تركيبها.

والصرف: هو ما يبحث في بنية الكلمة العربية.

فالعلم بالنحو والصرف يضمن فصاحة الكتابة، وينأى بالكاتب عن إيراد لفظة خاطئة في بُنيتها، ويجنبه اللحن والخطأ في التراكيب.

ومما يكون الكلام به فصيحاً سلامة مفرداته وتراكيبه من الخطأ، وخطأُ الكاتب ولحنه أقبح من خطأ الخطيب ولحنه.

ثم إن الإعراب مَعْلَمٌ من معالم اللغة، ومفخرة من مفاخرها.

وإليك هذه النبذة عن معنى الإعراب وبيان أهميته:

أولاً: معنى الإعراب:

أ) **الإعراب في اللغة:** أصل هذه المادة: (عرب) قال ابن فارس رحمه الله: «العين والراء والباء أصول ثلاثة: أحدها: الإبانة[1] والإفصاح، والآخر: النشاط وطيب النفس، والثالث: فساد في جسم أو عضو

١ـ في المقاييس تحقيق الأستاذ عبدالسلام هارون: (الإنابة) وهذا خطأ واضح.

فالأول أعرب الرجل عن نفسه: إذا بين وأوضح»[١].

وقال: «إعراب الكلام -أيضاً- من هذا القياس؛ لأن بالإعراب يفرق بين المعاني في الفاعل، والمفعول، والنفي، والتعجب، والاستفهام، وسائر أبواب هذا النحو من العلم»[٢].

ب) **الإعراب في الاصطلاح**: «أثر ظاهر أو مقدر يجلبه العامل في آخر الكلمة»[٣].

والمراد بالأثر ما يحدثه العامل من الحركات الثلاث أو السكون، وما ينوب عنها.

وبالظاهر: ما يلفظ به نحو جاء زيدٌ، وأكرمت زيداً، ومررت بزيدٍ، وبالمقدر: ما يُنوى من ذلك كالضمة، والفتحة، والكسرة من نحو: الفتى، والنون في مثل: (لتبلون)[٤].

ويراد بالكلمة: الاسم والفعل المعربان.

والمراد بآخر الكلمة: أحوال أواخرها، وما يعتريها من تغيُّر.

ج) **معنى البناء**: هو لزوم آخر الكلمة حالة واحدة مثل: هلْ، وقامَ، وأمسِ، ومنذْ[٥].

١ـ معجم مقاييس اللغة ٤/٢٩٩ـ٣٠٠.

٢ ـ معجم مقاييس اللغة ٤/٢٩٩ـ٣٠٠.

٣ـ هذا تعريف ابن هشام رحمه الله انظر ضياء السالك إلى أوضح المسالك ١/٤٩.

٤ـ انظر ضياء السالك ١/٤٩ـ٥٠.

٥ ـ انظر ضياء السالك ١/٥٠.

ثانياً: أهمية الإعراب وأقوال العلماء فيه:

يرى علماء العربية وجميع النحاة إلا من شذ منهم أهمية الإعراب، وأن لعلاماته وألقابه دلالاتٍ معينةً، وأغراضاً معنوية؛ فهي تدل على المعاني المختلفة التي تَعْتَوِر الأسماء من فاعلية، أو مفعولية، أو غير ذلك.

وأقوالهم في ذلك كثيرة جداً، وهذه نبذة من أقوال بعض العلماء:

- قال ابن قتيبة ت ٢١٣ رحمه الله: «ولها - يعني العرب - الإعراب الذي جعله الله وشْياً لكلامها، وحليةً لنظامها، وفارقاً في بعض الأحوال بين الكلامين المتكافئين، والمعنيين المختلفين، كالفاعل والمفعول، لا يفرق بينهما إذا تساوت حالاهما في إمكان الفعل أن يكون لكل واحد منهما - إلا بالإعراب.

ولو أن قائلاً قال: (هذا قاتلٌ أخي) بالتنوين، وقال آخر: (هذا قاتلُ أخي) بالإضافة - لدل التنوين على أنه لم يقتله، ودل حذف التنوين على أنه قد قتله»(١).

- وقال أبو القاسم الزجاجي ت٣٣٧هـ رحمه الله: «فإن قال قائل: قد ذكرتَ أن الإعراب داخل في الكلام فما الذي دعا إليه، واحتيج إليه من أجله؟

١ـ تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ص١٤.

فالجواب: أن يقال: إن الأسماء لما كانت تعتورها المعاني، وتكون فاعلة ومفعولة، ومضافة، ومضافاً إليها، ولم يكن في صورها، وأبنيتها أدلة على هذه المعاني، بل كانت مشتركة ـ جُعِلَتْ حركات الإعراب فيها تنبئ عن هذه المعاني، فقالوا: ضرب زيد عمراً، فدلوا برفع زيد على أن الفعل له، وبنصب عمرو على أن الفعل واقع به.

وقالوا: ضُرب زيدٌ؛ فدلوا بتغيير أول الفعل، ورفع زيد على أن الفعل ما لم يسمَّ فاعلُه، وأن المفعول قد ناب منابه.

وقالوا: هذا غلامُ زيدٍ؛ فدلوا بخفض زيد على إضافة الغلام إليه.

وكذلك سائر المعاني جعلوا هذه الحركات دلائل عليها؛ ليتسعوا في كلامهم، ويقدموا الفاعل إذا أرادوا ذلك، أو المفعول عند الحاجة إلى تقديمه، وتكون الحركات دالةً على المعاني»[١].

ويقول رحمه الله: «وأصل الإعراب للأسماء، وأصل البناء للأفعال والحروف؛ لأن الإعراب إنما يدخل في الكلام؛ ليفرق بين الفاعل والمفعول، والمالك والمملوك، والمضاف والمضاف إليه، وسائر ذلك مما يعتور الأسماء من المعاني.

وليس شيء من ذلك في الأفعال ولا في الحروف»[٢].

١ـ الإيضاح على علل النحو للزجاجي ص٦٩، وانظر الأشباه والنظائر للسيوطي ١/٧٨، وانظر فصول في فقه العربية د. رمضان عبدالتواب ص٣٢٧.

٢ـ كتاب الجمل في النحو للزجاجي ص٢٦٠.

وقال: «ويسمي النحويون الحركات اللواتي تعتقب في أواخر الأسماء والأفعال الدالة على المعاني إعراباً؛ لأنها بها يكون الإعراب أي: البيان»[١].

- وقال ابن فارس رحمه الله: «من العلوم الجليلة التي خُصت بها العربُ الإعرابُ الذي هو الفارق بين المعاني المتكافئة في اللفظ، وبه يعرف الخبر الذي هو أصل الكلام.

ولولاه ما مُيِّز فاعل من مفعول، ولا مضاف من منعوت، ولا تعجُّبٌ من استفهام، ولا صَدْر من مصدر، ولا نعتٌ من تأكيد»[٢].

وقال رحمه الله: «فأما الإعراب فبه تميز المعاني، ويوقف على أغراض المتكلمين؛ وذلك أن قائلاً لو قال: (ما أحسنْ زيدْ) غير معرب، أو (ضرب عمرْ زيد) غير معرب لم يوقف على مراده.

فإذا قال: (ما أحسنَ زيداً) أو (ما أحسنُ زيدٍ) أو (ما أحسنَ زيدٌ) أبانَ الإعراب عن المعنى الذي أراده.

وللعرب في ذلك ما ليس لغيرها؛ فهم يفرقون بالحركات وغيرها بين المعاني»[٣].

- وقال ابن جني رحمه الله: «باب القول على الإعراب: هو الإبانة

١ـ كتاب الجمل في النحو ص٢٦١ـ٢٦٢.

٢ـ الصاحبي ص٤٣.

٣ـ الصاحبي ص١٤٣.

عن المعاني بالألفاظ؛ ألا ترى أنك إذا سمعت: أكرم سعيدٌ أباه، وشكر سعيداً أبوه ـ علمت برفع أحدهما، ونصب الآخر الفاعلَ من المفعولِ، ولو كان الكلام شَرْجاً[1] واحداً لاستبهم أحدهما من صاحبه.

فإن قلت: فقد تقول ضرب يحيى بُشْرَى، فلا تجد هناك إعراباً فاصلاً، وكذلك نحوه ـ قيل: إذا اتفق ما هذه سبيله مما يخفى في اللفظ حاله، أُلزِم الكلامُ من تقديم الفاعل، وتأخير المفعول ما يقوم مقام بيان الإعراب.

فإن كانت هناك دلالة أخرى من قِبَل المعنى وقع التصرف فيه بالتقديم والتأخير؛ نحو أكل يحيى كمثرى ـ لك أن تقدم وأن تؤخر كيف شئت، وكذلك ضربتْ هذا هذه، وكلم هذه هذا، وكذلك إن وضح الغرض بالتثنية أو الجمع جاز لك التصرف نحو قولك: أكرم اليحييان البُشرَيَيْنِ، وضرب البُشَريين اليحيون، وكذلك لو أومأت إلى رجل وفرس، فقلت: كلم هذا هذا، فلم يجبه لجعلت الفاعل والمفعول أيهما شئت؛ لأن في الحال بياناً لما تعني.

وكذلك قولك: ولَدَتْ هذه هذه، من حيث كانت حال الأم من البنت معروفة، غير منكورة.

وكذلك إن ألحقت الكلام ضرباً من الإتباع جاز لك التصرف لما تُعقِب من البيان، نحو ضرب يحيى نفسَه بُشرى، أو كلم بشرى

---

١ ـ الشرج: النوع والضرب.

العاقلَ مُعلًّى، أو كلم هذا وزيداً يحيى.

ومن أجاز قام وزيد عمرو لم يُجِزْ ذلك في نحو (كلم هذا وزيد يحيى) وهو يريد كلم هذا يحيى وزيد، كما يجيز (ضرب زيداً وعمرو جعفر)»[١].

وهكذا يتبين لنا أن العلماء القدماء يتفقون على أهمية الإعراب، وضرورته، ويبينون أن الجملة لو كانت غُفْلاً من الإعراب لاحتملت معاني عدة؛ فإن أُعْرِبَتْ نصَّت على معنى واحد[٢].

وقد تبعهم في ذلك أكثر المُحْدَثين، ومنهم المستشرقون؛ فكثير منهم أقرَّ بأنَّ الإعراب هو المميز للغة.

وبهذا يتبين أنه لا بد للكاتب من معرفة النحو والصرف وإلا كانت كتابته مشتملة على الخطأ، والخلل.

وإن من أعظم ما يعين على ذلك دراسةَ كتب النحو والصرف وفهمها.

ومن أنفعها للمبتدئ متن الآجرومية، ومن أحسن شروحها شرح الشيخ محمد محيي الدين عبدالحميد المعروف بالتحفة السنية، وكذلك حاشية الشيخ عبدالرحمن بن قاسم ـ رحمهما الله ـ.

ثم يرتقي إلى كتاب قطر الندى وبلّ الصدى لابن هشام، وشرحه

---

١ ـ الخصائص لابن جني ١/٨٩.

٢ ـ انظر فصول في فقه العربية ص٣٢٨.

لابن هشام ـأيضاًـ ثم ينتقل إلى ألفية ابن مالك وشروحها، ومن أنفع تلك الشروح شرح ابن عقيل، وشرح ابن الناظم، وشرح ابن هشام المعروف بـ: أوضح المسالك.

وإذا أراد التعمق فعليه بكتاب مغني اللبيب لابن هشام، وشرح التصريح على التوضيح للشيخ خالد الأزهري، وشرح الرضي على الكافية.

ومن الكتب الميسرة في النحو: القواعد الأساسية للسيد أحمد الهاشمي، وجامع الدروس العربية للشيخ مصطفى الغلاييني.

وأغلب الكتب الماضية تجمع بين النحو والصرف.

ومن الكتب الخاصة بالصرف شذا العَرْف في فن الصرف للحملاوي، والصرف للمراغي، والتطبيق الصرفي للدكتور عبده الراجحي.

٥ـ العلم بفقه اللغة

فهو فن عظيم، وفرع شريف من فروع اللغة، يطلق على العلم الذي يعنى بدراسة قضايا اللغة، ويتناول كثيراً من الموضوعات المهمة فيها كالقول في أصل اللغة، والخلاف في ذلك، وكمعرفة سنن العرب في كلامهم، والوقوف على خصائص اللغة، وما تنطوي عليه من أسرار وجمال.

ويتناول ـ كذلك ـ علم الأصوات اللغوية، ولهجات العرب واختلافها، ودلالة الألفاظ، وتطورها، وانحطاطها.

ويتناول الاشتقاق، والمشترك، والمترادف، والمتضاد، والنحت،

والمُشَجَّر، والتعريب وضوابطه، والمعاجم العربية، ومدارسها، ومناهج أصحابها.

ويتناول -أيضاً- مواكبة اللغة العربية للجديد، واستيعابها للمصطلحات الجديدة، كالمصطلحات الطبية، والصناعية وغيرها.

ويتناول جهود العلماء في اللغة قديماً وحديثاً.

ويتناول العناية بالدراسات التي تقوم بها المجامع اللغوية، وما يتمخض عنها من نتائج وقرارات.

ويُعنى -كذلك- بما تواجهه العربية من عقبات، وما يُحاك ضدها من مؤامرات.

ويُعنى بقضايا الدعوة إلى العامية، وترك الإعراب، وإصلاح الخط العربي.

وما إلى ذلك مما يتناوله عِلْمُ: فقه اللغة.

ولا ريب أن الكاتب بحاجة إلى هذا العلم؛ إذ به يعرف سنن العرب في كلامها، ويتمكن من الكتابة السليمة، ويكون معتزاً بلغته متمكناً من معرفة أسرارها.

هذا وإن من أهم المؤلفات في هذا العلم مما يعد نواةً له كتابين:

أولها: كتاب (العين) للخليل بن أحمد: وهو أول معجم عربي، بناه مؤلفه على طريقة مبتكرة من الترتيب الصوتي؛ إذ استطاع الخليل

أن يرتب مخارج الأصوات من أقصى الحلق إلى الشفتين، ويقيم معجمه على نظام التقاليب الصوتية.

كما أنه رحمه الله استطاع أن يحدد المهمل من كلام العرب، والمستعمل.

ولعظم هذا العمل صعب على كثير من أعداء الإسلام والعربية أن ينسبوه إلى الخليل؛ فراحوا يكيلون التهم، ويدَّعون أن الخليل اقتبسه عن غيره من الأمم السابقة التي عرفت النظام الصوتي والمعجمي.

- **أما الكتاب الآخر فهو (كتاب سيبويه):** وهو عمرو بن عثمان ابن قنبر الملقب بـ: سيبويه.

وكتابه يعد - بحق - دستور النحو العربي، وقد اتخذه العلماء بعد سيبويه أساساً لمؤلفاتهم شرحاً وتحليلاً.

وكل ما أضيف إلى النحو العربي بعد هذا الكتاب لا يقارن بالكتاب.

وقد عالج سيبويه رحمه الله في كتابه القضايا النحوية، والصرفية.

كما تحدث عن الأصوات: مخارجها، وصفاتها في آخر الكتاب.

كما أنه اشتمل على مسائل في التقديم والتأخير، ومعاني الحروف، ومحاسن العطف، ونحوها؛ فكان عمدة علماء البلاغة من بعده، فهو يعد عملاً لغوياً متكاملاً؛ ولقد كان كتابه محل القبول، والثناء، وكان له منزلة مرموقة.

ومما ذكره ابن جني في الثناء عليه وعلى علمه قوله: «ولما كان

النحويون بالعرب لاحقين، وعلى سمتهم آخذين، وبألفاظهم مُتَحلِّين، ولمعانيهم وقصودهم آمِّين ـ جاز لصاحب هذا العلم ـيعني سيبويهـ الذي جمع شَعَاعه، وشرع أوضاعه، ورسم أشكاله، ووسم أغفاله، وخَلَج أشطانه، وبعج أحضانه، وزمَّ شوارده، وأفاد نوادره ـ أن يرى فيه نحواً مما رأوا» اهـ[1].

وقال الزمخشري مثنياً على سيبويه:

ألا صلى الإلهُ صلاةَ صدقٍ على عمرو بنِ عثمانَ بنِ قنبرْ
فإنَّ كتابه لم يغْنَ عنه بنو قلمٍ ولا أعواد منبرْ

هذه نبذة موجزة عن جهود العلماء في التأليف في اللغة، تلك التآليف التي كانت كالمقدمات، والإرهاصات لظهور (فقه اللغة) كعلم مستقل.

أما البداية الحقيقية لفقه اللغة وظهوره علماً مستقلاً ـ فكانت على يد عالمين من علماء اللغة الكبار في القرن الرابع؛ حيث كان لهما أكبر الأثر في التأليف في (فقه اللغة) وتعد مؤلفاتهما البداية الحقيقيَّة لإفراد هذا العلم بكتب خاصة.

الأول: أبو الحسين أحمد بن فارس ت٣٩٥هـ: الذي أَلَّف مجموعة من الكتب اللغوية وغيرها، ومنها كتاب: (الصاحبي في فقه اللغة

---

١ ـ الخصائص ١/٣١٣.

العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها).

وترجع أهميةُ هذا الكتاب إلى أمور عديدة لعل أهمَّها كونُه أولَ كتابٍ في العربية يحمل اصطلاح (فقه اللغة).

وبه تأثر المؤلفون من بعده، واتخذوا هذا الاصطلاح فناً لغوياً مستقلاً.

وقد عالج ابن فارس رحمه الله في كتابه (الصاحبي) عدداً من الموضوعات التي تعد من صميم فقه اللغة، وجمع في كتابه ما تفرق في كتب من سبقه.

قال رحمه الله في مقدمة كتابه: «والذي جمعناه في مؤلفنا هذا مفرق في أصناف العلماء المتقدمين ـ رضي الله عنهم وجزاهم عنا أفضل الجزاء ـ.

وإنما لنا فيه اختصار مبسوط، أو بسط مختصر، أو شرح مشكل، أو جمع متفرق»[1].

ثم بعد ذلك شرع رحمه الله في أبواب الكتاب التي تعد النواة الأولى في فقه اللغة، وذلك كحديثه عن نشأة اللغة، والخط العربي، وعن خصائص اللغة، ومزاياها.

وكحديثه عن اختلاف اللغات، وأقسام الكلام، ومعاني الحروف.

وكحديثه عن الخطاب المطلق والمقيد، وعن الحقيقة والمجاز، والقلب، والإبدال، والعموم، والخصوص، والحذف والاختصار،

---

١ ـ الصاحبي ص١٢.

والإتباع، والنحت، والإشباع، وغيرها.

وبالجملة فإن الكتاب يحتوي على ٢٠٧ من الأبواب.

كل ذلك مع أن الكتاب في مجلد واحد.

وقد طبع عدة طبعات، ولعل من آخرها طبعة دار الكتاب العلمية ١٤١٨هـ-١٩٩٨م.

وقد علق عليه ووضع حواشيه أحمد حسن بسج، ويقع بعد التحقيق في ٢٣٨ صفحة.

كما أن ابن فارس رحمه الله أمدَّ المكتبة العربية بمعجم سماه (مقاييس اللغة).

وهو من أضخم المعاجم العربية.

وله معجم آخر اسمه (مجمل اللغة).

وهذه الكتب تدل على عقلية جبارة، وموهبة فذة مبتكرة.

الآخر: أبو الفتح عثمان بن جني: كان أبوه جنيٌّ مملوكاً رومياً لسليمان ابن فهد بن أحمد الأزدي الموصلي.

وجِنّي بكسر الجيم وتشديد النون مكسورة، وسكون الياء - معرَّب كِنّي.

ولد في الموصل سنة ٣٠٠هـ، وقيل ٣٢٢هـ وتوفي في بغداد عام ٣٩٢هـ. كان ابن جني رجل جدٍّ، وامرأ صدقٍ في فعله وقوله؛ فلم يعرف عنه اللهو، والشرب، والمجون.

وكان المتنبي يجله، ويقول فيه: «هذا رجل لا يعرف قدره كثير من الناس»[١].

وكان إذا سُئل عن شيء من دقائق النحو والتصريف في شعره يقول: «سلوا صاحبنا أبا الفتح».

وكان يقول: «ابن جني أعرف بشعري مني»[٢].

وكان ابن جني يعجب بشعر المتنبي، ويستشهد بشعره في المعاني، وهو أول من شرح ديوانه، وله في ذلك شرحان: كبير وصغير.

ويعد ابن جني من كبار علماء العربية وأفذاذها.

وكان محل الثناء من قبل كثير من العلماء، قال عنه الثعالبي: «هو القطب في لسان العرب، وإليه انتهت الرياسة في الأدب»[٣].

وقال عنه الفيروز أبادي: «الإمام الأوحد، البارع المتقدم»[٤].

وله كتب كثيرة في فنون مختلفة لم تعرف العربية لها نظيراً.

وله فيما يعد من صميم فقه اللغة كتابان جليلان.

أولهما: كتاب (الخصائص): حيث عالج فيه كثيراً من قضايا فقه اللغة، وقدم نظريات وآراء تجاري أو تفوق أحدث ما قال به العلماء في العصر الحديث.

١ـ معجم الأدباء لياقوت الحموي ٨٩/٢و١٠٢.

٢ـ شذرات الذهب لابن العماد ١٤١/٣.

٣ـ يتيمة الدهر للثعالبي ١٢٤/١.

٤ـ البلغة في تاريخ أئمة اللغة للفيروزأبادي ص١٣٧.

وقد تحدث في كتابه المذكور عن موضوعات كثيرة تعد من صميم فقه اللغة.

ومنها حديثه عن أصل اللغة، ومقاييس العربية، وتداخل اللغات، والاشتقاق الأكبر، والإدغام، والعلاقة بين الألفاظ والمعاني، والتقديم والتأخير، واستخلاص معاني الأوصاف من المعاني، والإبدال.

وقد طبع عدة طبعات كطبعة الشيخ محمد بن علي النجار، وطبع أخيراً بتحقيق د. عبدالحميد هنداوي، ونشرته دار الكتب العلمية ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م

وهذه الطبعة تتميز بحسن إخراجها، ودقة فهارسها، حيث يستطيع الباحث من خلالها الوصول إلى آراء ابن جني عبر الفهارس بدون كلفة.

أما كتابه الثاني فهو: (سر صناعة الإعراب): وقد خصه ابن جني لدراسة الأصوات؛ فكان أول عالم في العربية يفرد هذا البحث بكتاب مستقل؛ حيث كان قبله يُدْرَسُ ضمن بحوث النحو كما في كتاب سيبويه، والمقتضب للمبرد.

وقد قدم ابن جني في كتابه مباحث قيمة في علم الأصوات مستفيداً من سابقيه، ومضيفاً إليه الكثير؛ فهو في مقدمته يتحدث عن الفرق بين الصوت والحرف، وهو يُشَبِّه الحلق والفم بالناي، ويذكر أن الحركات أبعاض حروف المد.

ثم يتحدث عن الحروف، ومخارجها، وأجناسها، ومدارجها، وفروعها المستحسنة، والمستقبحة، وذكر خلاف العلماء فيها مستقصىً مشروحاً.

وبعد ذلك يعقد لكل حرف من حروف العربية مرتبة على الحروف الألفبائية باباً يتكلم فيه على صفاته، ومخرجه، وما يعرض له من قلب، أو إبدال، أو إدغام، كما يتعرض لكثير من القضايا النحوية.

كما تحدث عن تصريف حروف المعجم، واشتقاقها، وجمعها، كما تحدث عن مذهب العرب في مزج الحروف بعضها ببعض، وما يجوز من ذلك وما يمتنع، وما يحسن وما يقبح إلى غير ذلك مما حفل به ذلك الكتاب.

والناظر في هذا الكتاب يلحظ فيه مزايا عديدة منها على سبيل الإجمال: غزارة المادة، والوضوح، والسهولة، والشمول، والاستقصاء.

وقد طبع هذا الكتاب مؤخراً في مجلدين طبعة طيبة معتنىً بها كثيراً، حيث درسها وحققها د. حسن هنداوي، وقد قدم للكتاب بمقدمة رائعة بيَّن فيها شيئاً من سيرة ابن جني، وأردفها بحديث ماتع عن الكتاب، وعن سبب تسميته، وعن بعض مزاياه.

هذا وقد ظهر بعد الكتب السالفة كتب كثيرة في فقه اللغة منها على سبيل المثال:

أ) فقه اللغة وسر العربية لأبي منصور الثعالبي ٤٣٠هـ: ويعد

الكتاب الثاني الذي وصل إلينا حاملاً مسمى (فقه اللغة) بعد كتاب (الصاحبي) لابن فارس.

وعنوان هذا الكتاب لا يطابق مسماه تماماً؛ إذ هو معجم للمعاني في مجمله، وفيه بعض الفصول في فقه اللغة، كحديثه عن أساليب العربية في التعبير من حقيقة ومجاز، وتقديم وتأخير، وحذف واختصار.

وفيه حديث عن الإبدال، والقلب، والنحت، وغيرها.

وقد طبع طبعات عديدة، منها طبعة دار الكتب العلمية بيروت، وطبعة دار مكتبة الحياة، وجاء عنوان الكتاب فيها (فقه اللغة وأسرار العربية)، ولعل أجود الطبعات طبعة دار الكتاب العربي، تحقيق ومراجعة د. فائز محمد، و د. إميل يعقوب.

ب) المخصص لابن سيده ت٤٥٨هـ: وهو معجم قيِّم ضمَّنه بعض المباحث في نشأة اللغة، والترادف، والتضاد، والاشتراك، والتعريب، والتذكير، والتأنيث، والمقصور، والمنقوص.

ج) المُعَرَّب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم لأبي منصور الجواليقي ت٥٤٠هـ: وقد قدَّم له بالحديث عن الألفاظ المُعَرَّبة، ومذاهب العرب في استعمال الأعجمي، وكيف نتعرف على ذلك.

د) المزهر في علوم اللغة وأنواعها للسيوطي ت ٩١١هـ.

وهذا الكتاب موسوعة في علوم اللغة، وقد ضمَّنه موضوعات لغوية عديدة اقتبسها من كتب السابقين، ورتبها وعرضها عرضاً جيداً؛ حيث جعل مُؤَلِّفهُ في خمسين نوعاً: ثمانية في اللغة من حيث الإسناد، وثلاثة عشر من حيث لطائفها ومُلَحها، وواحد راجع إلى حفظ اللغة وضبط مفاريدها، وثمانية راجعة إلى حال اللغة ورواتها، ونوع لمعرفة الشعر والشعراء، والأخير لمعرفة الأغلاط.

وفي ضمن هذه الأنواع مادة واسعة حول نشأة اللغة، والمصنوع والفصيح، والغريب، والمستعمل والمهمل، واللغات، واللهجات، والإبدال، والقلب، والنحت، والاشتقاق، والمجاز والمترادف، والمشترك، والمتضاد وغيرها من البحوث اللغوية.

وقد طُبع عدة طبعات منها طبعة دار الجيل بيروت، شرح وتحقيق محمد أحمد جاد المولى، وعلي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم.

وفي عصرنا الحاضر أَلَّف كثير من العلماء والأساتذة المختصين في الدراسات اللغوية كتباً في اللغة وعلومها.

ومن أشهر تلك الكتب كتاب: (دراسات في العربية وتاريخها) للعلاَّمة الشيخ محمد الخضر حسين، وقد احتوى هذا الكتاب على عدد من الرسائل، والموضوعات في اللغة.

ومن تلك الكتب: تاريخ آداب العرب لمصطفى صادق الرافعي حيث تَضمَّن كثيراً من مباحث فقه اللغة خصوصاً الجزء الأول منه.

ومن الكتب في هذا الباب: فقه اللغة د. علي عبدالواحد وافي، وعلم اللغة د.علي عبدالواحد وافي، وفقه اللغة في الكتب العربية د. عبده الراجحي، وفصول في فقه اللغة د. رمضان عبدالتواب، والمعاجم العربية د. أمين فاخر، ومقدمة لدراسة علم اللغة د. حلمي خليل، ومقدمة لدراسة فقه اللغة د. محمد أحمد أبو الفرج، والوجيز في فقه اللغة العربية عبدالقادر محمد مايو، وفقه اللغة المقارن د. إبراهيم السامرائي، وفقه اللغة العربية وخصائصها د. إميل يعقوب.

هذه نبذة عن علم فقه اللغة، وإنما أطلت في هذه الفقرة؛ لمسيس حاجة الكاتب إلى هذا العلم، ولقلة من ينبه عليه، وينوِّه به.[١]

٦- معرفة البلاغة، والوقوف على أسرار البيان العربي

فلا غنى للكاتب عن علم البلاغة؛ فهو علم جليل ينهض بأسلوب الكاتب، ويرتقي بفصاحته وبلاغته درجات؛ فيتمكن من الإتيان بالكلام الخالي من التعقيد، الخالص من تنافر الكلمات وضعف التأليف، المطابق لمقتضى الحال الذي يتمكن في النفوس، ويُعْرَض

١ ـ انظر: فقه اللغة ـ مفهومه ـ موضوعاته ـ قضاياه للكاتب؛ فقد يسر الله فيه جَمْعَ كثيرٍ مما تناثر من هذا العلم في القديم والحديث.

في صورة مقبولة حسنة.[١]

قال أبو هلال العسكري رحمه الله متحدثاً عن فضل هذا العلم ومسيس الحاجة إليه: «اعلم ـ علّمك الله الخير، ودلّك عليه، وقَيَّضه لك، وجعلك من أهله ـ أنَّ أحق العلوم بالتعلم، وأولاها بالتحفظ ـ بعد المعرفة بالله جل ثناؤه ـ علم البلاغة، ومعرفة الفصاحة، الذي به يعرف إعجاز كتاب الله ـ تعالى ـ الناطق بالحق، الهادي إلى سبيل الرشد، المدلول به على صدق الرسالة وصحة النبوة، التي رفعت أعلام الحق، وأقامت منار الدين، وأزالت شبه الكفر ببراهينها، وهتكت حجب الشك بيقينها.

وقد عَلِمْنا أن الإنسان إذا أغفل علم البلاغة، وأخلَّ بمعرفة الفصاحة لم يقع علمه بإعجاز القرآن من جهة ما خصه الله به من حسن التأليف، وبراعة التركيب، وما شحنه به من الإعجاز البديع، والاختصار اللطيف؛ وضمَّنه من الحلاوة، وجلله من رونق الطلاوة، مع سهولة كلمهِ وجزالتها، وعذوبتها وسلاستها، إلى غير ذلك من محاسنه التي عجز الخلق عنها، وتحيرت عقولهم فيها.

وإنما يعرف إعجازه من جهة عجز العرب عنه، وقصورهم عن بلوغ غايته، في حسنه وبراعته، وسلاسته ونصاعته[٢]، وكمال معانيه، وصفاء ألفاظه.

---

١ ـ انظر الصناعتين لأبي هلال العسكري ص١٠، والإيضاح للخطيب القزويني ص١٩.
٢ ـ النصاعة هنا: الوضوح.

وقبيحٌ ـ لعمري ـ بالفقيه المؤتم به؛ والقارئ المهتدَى بهديه، والمتكلم المشار إليه في حسن مناظرته، وتمام آلته في مجادلته، وشدة شكيمته في حِجَاجه[١] وبالعربي الصليب[٢]، والقرشي الصريح[٣] ـ ألا يعرف إعجاز كتاب الله ـ تعالى ـ إلا من الجهة التي يعرفه منها الزنجي[٤] والنبطي[٥]، أو أن يستدل عليه بما استدل به الجاهل الغبي»[٦].

إلى أن قال رحمه الله: «ولهذا العلم بعد ذلك فضائل مشهورة، ومناقب معروفة؛ منها أن صاحب العربية إذا أخل بطلبه، وفرَّط في التماسه، ففاتته فضيلته، وَعَلقَتْ به رذيلةُ فَوْتِهِ ـ عفّى على جميع محاسنه، وعمَّى[٧] سائر فضائله؛ لأنه إذا لم يفرق بين كلام جيد، وآخر رديء؛ ولفظٍ حسن، وآخر قبيح؛ وشعر نادر، وآخر بارد ـ بان جهله، وظهر نقصه.

وهو ـأيضاًـ إذا أراد أن يصنع قصيدة، أو ينشئ رسالة ـ وقد فاته

١ـ شديد الشكيمة: أبيّ لا ينقاد، والحِجَاج: مصدر حاجه: إذا غلبه في الحجة.
٢ـ الصليب: الخالص النسب.
٣ـ الصريح: الخالص النسب.
٤ـ الزنجي: بفتح الزاي وكسرها: واحد الزنوج وهم جيل من السودان.
٥ـ النبطي: واحد النبط بفتحتين وهم جيل من العجم كانوا ينزلون بالبطائح بين العراقين.
٦ ـ كتاب الصناعتين ص١ـ٢.
٧ـ عمى: أخفى. والسائر: الباقي.

هذا العلم- مزج الصفو بالكدر، وخلط الغُرر بالعرر[١]، واستعمل الوحشي العكر؛ فجعل نفسه مهزأة[٢] للجاهل، وعبرةً للعاقل؛ كما فعل ابن جحدر في قوله:

حلفتُ بما أرقَلَتْ حَوْلَهُ همَرْجَلَةٌ خَلْقُها شَيْظَمُ[٣]
وما شَبْرَقَتْ من تَنُوفيَّةٍ بها مِنْ وَحَى الجنِّ زِيزَيَمُ[٤]

وأنشده ابن الأعرابي، فقال: إن كنت كاذباً فالله حسيبك.

وكما ترجم بعضهم كتابه إلى بعض الرؤساء: مُكَركَسَة تَرَبُوتَا ومحبوسة بِسَرِّيتا.

فدلَّ على سخافة عقله، واستحكام جهله؛ وضرَّه الغريب الذي أتقنه ولم ينفعه، وحطه ولم يرفعه لمَّا فاته هذا العلم، وتخلف عن هذا الفن.

وإذا أراد - أيضاً - تصنيف كلام منثور، أو تأليف شعر منظوم، وتخطى هذا العلم ساء اختياره له، وقبحت آثاره فيه؛ فأخذ الرديء المرذول، وترك الجيد المقبول، فدل على قصور فهمه، وتأخر معرفته وعلمه.

١- الغرة: النفيس من كل شيء، والعرة: القذر.

٢- هزؤا.

٣- أرقلت: أسرعت. والهمرجلة: الناقة. والشيظم: الطويل الجسيم الفتيّ من الإبل والخيل والناس.

٤- شبرقت. الشبرقة: عدو الدابة وخذاً. والتنوفية: المفازة والأرض الواسعة البعيدة الأطراف، والوَحَى: الصوت الخفي، وزيزيم: صوت الجن.

وقد قيل: اختيار الرجل قطعة من عقله؛ كما أن شعرَه قطعةٌ من علمه»[١].

ومن خلال ما مضى يتبين لنا أهمية علم البلاغة للكاتب؛ فحقيق على مَنْ يمارس صناعة الكتابة أن يكون ذا دراية، واطلاع على هذا العلم.

وإنَّ مما يعينه على ذلك أن يقف على ما كُتب فيه؛ فَعِلْم البلاغة كان مندرجاً في جملة علم الأدب، وكانت مسائله شُعْبَةً من شعب النحو والأدب؛ وكانت مبثوثة في تضاعيف مؤلفات العلماء ككتاب سيبويه، وكطبقات الشعراء لابن سلام، والبيان والتبيين للجاحظ، والبديع لابن المعتز، ونقد الشعر لقدامة بن جعفر، والموازنة بين أبي تمام والبحتري للآمدي، والوساطة بين المتنبي وخصومه للقاضي علي ابن عبدالعزيز الجرجاني.

ثم ألَّف أبو هلال العسكري ت ٣٩٥هـ كتابه العظيم (كتاب الصناعتين: الكتابة والشعر) فعرض زبدة تلك الكتب، وصار كتابه من أمهات البلاغة.

ثم جاء الشيخ عبدالقاهر الجرجاني ت ٤٧١هـ فخصَّ علم البلاغة بالتدوين في كتابيه: (كتاب دلائل الإعجاز) و(كتاب أسرار البلاغة) فأعطى ألقاباً للمسائل، وأخرج الكلام في الإعجاز عن الصفة

---

١ ـ كتاب الصناعتين ص٢ـ٣.

الجزئية إلى قواعد كلية مسهبة مبرهنة.

ولم يَصِرْ علم البلاغة فناً مهذباً إلا منذ صنف يوسف السكاكي ت ٦٢٦هـ القسم الثالث من كتابه (مفتاح علوم العربية).

حيث جمع زبدة ما كتبه الأئمة قبله في هذه الفنون، ونظم لآلئها المتفرقة في تضاعيف كتبهم، وأحاط بكثير من قواعدها المبعثرة في الأمهات، ورتبها أحسن ترتيب، وبوَّبها خير تبويب، وفَصَّل فنونَ البيان الثلاثة بعضها من بعض؛ لما كان له من واسع الاطلاع على علوم كثيرة.

وقد اختصر مؤلَّفه في كتاب آخر سماه (التبيان) ولخَّصه بعض المتأخرين في أمهات مشهورة كما فعل ابن مالك في كتابه (المصباح) والخطيب جلال الدين محمد بن عبدالرحمن القزويني المتوفى سنة ٧٣٩هـ في كتابيه (تلخيص المفتاح) و(شرح الإيضاح).

والأخير مؤلف جليل جمع فيه مؤلفه خلاصة (المفتاح) و(دلائل الإعجاز) و(أسرار البلاغة) و (سر الفصاحة) لابن سنان الخفاجي.

ثم طفق المؤلفون من القرن الثامن وما بعده يوسعون الشروح والحواشي على المفتاح وتلخيصه للقزويني، وصرفوا جلَّ همتهم في تفسير ما أشكل من عبارات المؤلفين، والجمع بين ما تناقض من أرائهما.

ومن أجلِّ تلك الشروح شروح مسعود سعد الدين التفتازاني ت ٧٩١هـ، وشروح السيد الجرجاني ت ٨١٦هـ، ثم تتابعت التقارير، والحواشي توضح ما انبهم من تلك التراكيب المجملة، والعبارات الغامضة.

ومما يحسن التنبيه عليه أن أساليب التأليف في تلك العصور قد ملكت عليها العجمةُ أمرَها، ومن ثم لم يكن للقارئ أن يجعلها قدوة في أساليبها؛ فهي أحرى أن تكون أساليب اصطلاحية علمية لا لغوية أدبية، تشرح كلام العرب، وتبين مزاياه.

ثم أنشئت في العصر الحديث المدارسُ العالية والثانوية في مصر، فألفت المختصرات التي تناسب تلك البرامج المدرسية، ومن جملة ذلك ما أُلِّفَ في البلاغة، فهي ـ وإن اختلف ترتيبها، وتبويبها ـ تنحو في الجملة منحى ما كتبه صاحب التلخيص وشراحه.(١)

ومن أهمها كتاب: بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة لعبدالمتعال الصعيدي.

ومن الكتب التي أُلِّفت فيها ـ زيادة على ما ذكر آنفاً ـ المثل السائر لابن الأثير، هذا في القديم.

أما في العصر الحديث فهناك كتب كثيرة منها: موجز البلاغة لابن عاشور، والبلاغة الواضحة لعلي الجارم، ومصطفى أمين، وهو كتاب سهل ميسور، وسلسلة (في البلاغة العربية) د.عبدالعزيز عتيق، والبلاغة تطور وتاريخ د. شوقي ضيف، ومعجم البلاغة د. بدوي طبانة، والبلاغة العربية د. بكري شيخ أمين.

فهذه نبذة عن علم البلاغة، وبيان أهميته والتأليف فيه.

---

١ ـ انظر علوم البلاغة لأحمد مصطفى المراغي ص٩ـ١١.

٧ـ معرفة الإملاء، ومراعاة علامات الترقيم

فذلك من أهم ما يجب على الكاتب؛ فإذا كان عالماً بالإملاء سلمت كتابته من الأخطاء الإملائية.

وإذا كان مراعياً لعلامات الترقيم ساعد ذلك على توضيح مراده؛ فعلامات الترقيم تبين المعنى، وتزيل بعض الإشكال.

والمقصود بالترقيم هنا: علامات اصطلاحية توضع في أثناء الكلام، أو في آخره كالفاصلة، والنقطة، وعلامتي الاستفهام والتعجب، وكالفاصلة المنقوطة، وكعلامات التنصيص، والشرط وهكذا....

ومن أحسن ما كُتب في الإملاء: كتاب الإملاء للشيخ حسين والي.

ومن أحسن ما كُتب في الترقيم: كتاب الترقيم وعلاماته في اللغة العربية للعلامة أحمد زكي باشا، وكتاب كي لا نخطئ في الإملاء وعلامات الترقيم لحسني شيخ عثمان.

٨- الاطلاع على الكتب التي تعنى بصناعة الكتابة

والمقصود بها الكتب التي تتناول أدب الكتابة، وتضع لها القواعد العامة، والمعالم البارزة؛ فتتناول الألفاظ، والتراكيب، وتعنى بطرائق الكلام، وملاءمته، وإعطاء كل مقام حقه، وتضرب الأمثلة على ذلك كله.

ومن الكتب المؤلفة في هذا: أدب الكاتب لابن قتيبة، وأدب الكتاب للصولي، وإصلاح المنطق لابن السِّكِّيت، وكتاب الفرْق وكتاب

مُتَخَيَّر الألفاظ كلاهما لابن فارس اللغوي، وكتاب الفَرْق لثابت بن أبي ثابت اللغوي، وكتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري، ودُرّة الغوَّاص للحريري، وجواهر الألفاظ لقدامة ابن جعفر، والمثل السائر لابن الأثير، والألفاظ الكتابية للهمذاني الكاتب، وسحر البلاغة وسر البراعة وكتاب التمثيل والمحاضرة كلاهما للثعالبي، والمنتخب من كنايات الأدباء وإرشادات البلغاء لأبي العباس الجرجاني، وكتاب الكناية والتعريض للثعالبي، وكتاب الكتَّاب لابن درستويه، وشرح أدب الكاتب لأبي منصور الجواليقي، ومعالم الكتابة ومغانم الإصابة لعبدالرحيم بن علي القرشي.

ويدخل في هذا القبيل كتب المعاجم؛ فهي تمد الكاتب بثروة لغوية هائلة، كمعجم العين للخليل، والمقاييس لابن فارس، والجمهرة لابن دريد، والمحكم لابن سيده، وتهذيب اللغة للأزهري، وأساس البلاغة للزمخشري، ولسان العرب لابن منظور، والقاموس المحيط للفيروزأبادي[1].

ويدخل في ذلك الكتبُ التي تعنى بأكابر الكتاب، وتقوم على دراسة أساليبهم وطرائقهم ككتاب أمراء البيان لمحمد كرد علي، حيث

---

١ ـ انظر في الحديث عن هذه المعاجم، وبيان مزاياها، والمآخذ عليها، وطريقة أصحابها، وكيفية البحث فيها إلى كتاب: فقه اللغة: مفهومه ـ موضوعاته ـ قضاياه. للكاتب ص٢٠٣ـ٣٩٧.

تعرض في هذا الكتاب لدراسة عشرة من أكابر كتاب العربية.[١]

٩- الوقوف على أمثال العرب

فمما يحسن بالكاتب أن يكون ذا معرفة واطلاع على أمثال العرب؛ وهي أقوال موجزة مرسلة تشبِّه حالاً مشاهدة بأحوال منظورة.

والذي يجمع بين الحال السابقة والحال القائمة هو المماثلة.

وللأمثال أثر في النفوس، وسيرورة في الناس؛ فهي خفيفة الظل، سريعة الحفظ، تمزج الهزل بالجد، وتشير إلى ما تريد بطرف خفي؛ فهي كالرموز والإشارات التي يُلَوّح بها على المعاني تلويحاً.

وحيث إنها بهذه المثابة فلا ينبغي لمن أراد الارتقاء بقلمه أن يُخلَّ بمعرفتها، والوقوفِ عليها.

قال أبو هلال العسكريُّ ﷺ في مقدمة كتابه **جمهرة الألفاظ**: «ما رأيت حاجةَ الشريف إلى شيء من أدب اللسان بعد سلامته من اللحن كحاجته إلى الشاهد، والمثل، والشَّذْرة، والكلمة السائرة؛ فإن ذلك يزيد المنطق تفخيماً، ويكسبه قبولاً، ويُجْعل له قدراً في النفوس، وحلاوة في الصدور، ويدعو القلوبَ إلى وَعْيه، ويبعثها على حفظه، ويأخذها باستعداد لأوقات المذاكرة والاستظهار به أوانَ المجاولة في ميادين المجادلة والمصاولة في حلبات المقاولة.

---

١ ـ وقد انتقيت طرفاً من ذلك الكتاب في كتابي المنتقى من بطون الكتب المجموعة الرابعة من ص٢١٩ـ٣٧٥.

وإنما هو في الكلام كالتفضيل في العقد، والتنوير في الروض، والتسهيم في البُرد[١]؛ فينبغي أن يستكثر من أنواعه؛ لأن الإقلال منها كاسمه إقلال، والتقصير في التماسه قصور.

وما كان منه مثلاً سائراً فمعرفته ألزم؛ لأن منفعته أَعَمُّ، والجهل به أقبح»[٢].

إلى أن قال رحمه الله: «ولما عرفت العرب أن الأمثال تتصرف في أكثر وجوه الكلام، وتدخل في جُلِّ أساليب القول أخرجوها في أقواها من الألفاظ؛ ليخفَّ استعمالُها، ويسهلَ تداولها؛ فهي من أَجَلِّ الكلام وأنبله، وأشرفه، وأفضله؛ لقلة ألفاظها، وكثرة معانيها، ويسر مؤونتها على المتكلم مع كبير عنايتها، وجسيم عائدتها.

ومن عجائبها أنها ـ مع إيجازها ـ تعمل عمل الإطناب، ولها روعة إذا برزت في أثناء الخطاب.

والحفظ مُوكَّلٌ بما راع من اللفظ، وندر من المعنى»[٣].

وقال عبدالرحمن بن هذيل رحمه الله: «وليس يكمل أدب المرء حتى يعرف المثل السائر، والبيت النادر، وما يحكى عن أهل العصور من الأخبار العجيبة، وما وقع لهم من الألفاظ البليغة، والمعاني الغريبة؛

---

١ ـ التسهيم في البُرد: التخطيط فيها.

٢ ـ جمهرة الأمثال لأبي هلال العسكري ١/ ١٤.

٣ ـ جمهرة الأمثال ١/ ١٤.

ففي ذلك العلمُ بالأمور، والعقل المكتسب، والأدب الصادر عن ذي المروءة والحسب»[١].

وإليك هذا النموذج النثري من كلام الإمام الشوكاني رحمه الله في كتابه أدب الطلب حاثاً على طلب العلم، محذراً من الكسل، مبيناً عواقبه الوخيمة. وفي هذا المثال يتبين لك كيف وظّف الأمثال لما يريد أن يصل إليه.

يقول رحمه الله: «فإن من أرسل عنان شبابه في البطالات، وحل رباط نفسه فأجراها في ميادين اللذات ـ أدرك من اللذة الجسمانية من ذلك بحسب ما يتفق له منها، ولا سيما إذا كان ذا مال وجمال.

ولكنها تنقضي عنه اللذة، وتفارقه هذه الحلاوة ـ إذا تكامل عقله، ورجح فهمه، وقوي فكره؛ فإنه لا يدري عند ذلك ما يدهمه من المرارات التي منها الندامة على ما اقترفه من معاصي الله، ثم الحسرة على ما فوته من العمر في غير طائل، ثم على ما أنفقه من المال في غير حله، ولم يفز من الجميع بشيء، ولا ظفر من الكل بطائل.

وتزداد حسرته، وتتعاظم كربته ـ إذا قاس نفسه بنفس مَنْ اشتغل بالمعالي مِنْ أترابه في مقتبل شبابه؛ فإنه لا يزال عند موازنة ذاته بذاته، وصفاته بصفاته ـ في حسرات متجددة، وزفرات متصاعدة، ولا سيما إذا كان بيته في العلم طويل الدعائم، وسلفه من المتأهلين لمعالي المكارم، فإنه حينئذ تذهب عنه سكرة البطالة، وتنقشع عنه

١ ـ عين الأدب والسياسة وزين الحسب والسياسة لعلي بن هذيل ص١٥٩، وانظر المثل السائر ١/٢٣ـ٢٤.

عماية الجهالة بكروب طويلة، وهموم ثقيلة، وقد فات ما فات، وحيل بين العَيْر والنَزَوَان[١]، وحال الجَرِيْضُ دون القريض[٢] وفي الصيف ضَيَّعتِ اللبن[٣]+[٤].

هذا وإن عند العرب رصيد ضخم من الأمثال لا يحويه كتاب، ولا يستوفيه مصنف.

ومن الكتب المصنفة في ذلك أمثال العرب للمفضل الضبي، وكتاب الأمثال لأبي عبيد، ومجمع الأمثال للميداني، وجمهرة الأمثال لأبي هلال العسكري، والأمثال والحكم للماوردي، والتمثيل والمحاضرة للثعالبي، والمستقصَى من أمثال العرب للزمخشري، ومعجم الأمثال

١- النزوان: الوثبان، ونزوان العير: وثوبه على أتناه، وأول من قاله صخر بن عمرو السلمي أخو الخنساء:

أهم بأمر الحزم لو أستطيعه وقد حيل بين العير والنزوان

انظر: لسان العرب ١٥/٣١٩.

٢- قولهم حال الجريض دون القريض، قيل: الجريض: الغصة، والقريض: الجرة، وقيل الجريض: الغصص، والقريض: الشعر، وقال الرياشي: القريض والجريض يَحْدُثان بالإنسان عند الموت. انظر لسان العرب ٧/١٣٠.

٣ ـ الصيف ضيعت اللبن: هذا مثل مشهور عند العرب، وكذلك قولهم: حيل بين العير والنزوان، وقولهم حال الجريض دون القريض.

وهذه الأمثال الثلاثة تضرب لمن يضيع الأمر، ثم يريد استدراكه بعد فوات الأوان، وتقال: عند كل أمر كان مقدوراً عليه؛ فحيل دونه.

٤ ـ أدب الطلب ص١٣٥.

العربية د. محمود صيني وناصف عبدالعزيز، ومصطفى سليمان وغيرها.

١٠- معرفة أيام العرب والوقائع

فيحسن بالكاتب أن يكون ذا بَصَرٍ بأيام العرب، ومعرفة بالوقائع التي وردت في حوادث خاصة بأقوام؛ فإن أيام العرب تتنوع، وتتشعب؛ فمنها أيام فخار، ومنها أيام محاربة، ومنها أيام منافرة، ومنها غير ذلك.

ومن الأيام المشهورة عند العرب يوم حليمة، ويوم خزاز، ويوم بعاث، وغيرها من الأيام سواء في الجاهلية أو الإسلام.

وهناك كتب مصنفة في هذا الصدد، كأيام العرب في الإسلام لمحمد أبو الفضل إبراهيم وغيره، كما أن هذه الأيام ترد ضمناً في كتب العلماء، والأدباء، والتواريخ.

ولا يخلو الناظر أو الناثر من الانتصاب لوصف يوم يمر به في بعض الأحوال، ومماثلٍ له؛ فإذا جاء بذكر بعض الأيام المناسبة لمراده الموافقة له، وقاس عليه ـ فإنه يكون في غاية الحسن والرونق ـ كما يقول ابن الأثير ـ.(١)

وأما الوقائع التي وردت في حوادث خاصة بأقوام فإنها كالأمثال في الاستشهاد بها.(٢)

---

١ ـ ٢ـ انظر المثل السائر ١/٢٤.

١١- الحرص على الأخذ من كل فن بطرف

فبالجملة فإن صاحب صناعة الكتابة - كما يقول ابن الأثير -: «يحتاج إلى التشبث بكل فنٍ من الفنون، حتى إنه يحتاج إلى معرفة ما تقوله النادبة بين النساء، والماشطة عند جَلْوَة العروس، وإلى ما يقوله المنادي في السوق على السلعة؛ فما ظنك بما فوق هذا؟

والسبب في ذلك أنه مؤهل لأن يهيم في كل واد؛ فيحتاج إلى أن يتعلق بكل فن»(١).

هذا وإن للعرب قِدْحاً مُعلًّى في التأليف والتفنن فيه؛ فمن أراد تنمية مداركه، وتوسيع نطاق علمه ـ فليقف على ما ألفوه في أي فن يريده، وسيجد ما يشبع نهمته، ويروي غلته؛ فالذي يقف على ما شاده الأوائل، وكتبوه يأخذه العجب، ويذهب به كل مذهب.

يقول الشيخ محمد الطاهر بن عاشور ﷺ في أثناء حديث له عن تاريخ العلوم، وما وصلت إليه في بعض مراحل التاريخ الإسلامي: «ومما تقدم إلى هنا: تعلم أن العلوم التي كانت تدرس وتدون يومئذ تنتهي إلى اثنين وثلاثين علماً هي: التفسير، الحديث، السيرة، اللغة، النحو، الصرف، التصوف، العَروض، الفقه، أصوله،

---

١ ـ المثل السائر ١/٣١، وانظر كتاب التمثيل والمحاضرة للثعالبي؛ فهو حافل بكثير مما يحتاجه الكاتب في ذلك الشأن.

التاريخ، الطب، آداب العرب، البلاغة، الفلك، المنطق، الفلسفة، الهندسة، الحساب، الهيئة، الجغرافيا، الموسيقى، علم الحيوان، الطبيعة، الرواية والقصص، الكلام، الصيدلة، الكيمياء، الفلاحة، المساحة، الجبر، جر الأثقال والتحرك، وتتبعها علوم تتفرع عن بعضها مثل مصطلح الحديث، والجدل، وآداب البحث، ونقد الشعر». [١]

هذا بالنسبة للفنون والموضوعات، أما ما يندرج تحتها من أفراد ومؤلفات فلا يمكن حصره.

١٢- الاطلاع على كتابات أرباب البيان

وذلك بالانصباب على مطالعة المنشئات البعيدة الغور في بيانها، المنتمية إلى الطرف الأعلى في عذوبة ألفاظها ورشاقة معانيها ككتابات ابن المقفع، وعبدالحميد الكاتب، والجاحظ، وابن قتيبة، وسهل ابن هارون، وعمرو بن مسعدة، وإبراهيم بن العباس الصولي، وأحمد ابن يوسف الكاتب، ومحمد بن عبدالملك الزيات، وأبي حيان التوحيدي، وابن العميد. [٢]

وقل مثل ذلك في كتابات كثير من الكتاب المُحْدثين على تنوع مدارسهم، كالمنفلوطي، والرافعي، والزيات، وشكيب أرسلان.

---

١ ـ أليس الصبح بقريب ص٣٩.

٢ ـ انظر أمراء البيان لمحمد كرد علي.

وكذلك كتب العلماء الذين يعنون بتحريراتهم؛ فيجمعون إلى العلمِ التمهرَ في الكتابة، وشدةَ الأسر، وجمال الأساليب كابن عبدالبر، وابن الجوزي، وابن حزم، وابن تيمية، وابن القيم، والشاطبي، وابن حجر، والشوكاني.

ومن المعاصرين محمد الخضر حسين التونسي، ومحمد الطاهر بن عاشور التونسي، ومحمد البشير الإبراهيمي الجزائري.

وأما أشهر الكتب في هذا السياق - زيادة على ما مضى - فأمهات الأدب والبيان، ككتاب الأدب الكبير والأدب الصغير، وكليلة ودمنة وهما لابن المقفَّع، والبيان والتبيين للجاحظ، والكامل للمبرد، والأمالي لأبي علي القالي، وعيون الأخبار لابن قتيبة، والأغاني لأبي الفرج الأصفهاني، وصبح الأعشى للقلشندي، والعقد الفريد لابن عبد ربه، وزهر الآداب للحُصْري القيرواني، وبهجة المجالس لابن عبدالبر، ونفح الطيب للمقري.

ومن كتب المُحْدَثين والمعاصرين: النظرات، والعبرات، والمختارات للمنفلوطي، ووحي القلم، وتاريخ آداب العرب للرافعي، والارتسامات اللطاف، والحلل السندسية، وشوقي وصداقة أربعين سنة لشكيب أرسلان، والرسالة لأحمد حسن الزيات، وفيض الخاطر لأحمد أمين، ورسائل الإصلاح، والحرية في الإسلام، ومحاضرات إسلامية، والهداية الإسلامية، والسعادة العظمى لمحمد

الخضر حسين[١]، وأليس الصبح بقريب، وشرح ديوان بشَّار، ومقاصد الشريعة الإسلامية، وأصول النظام الاجتماعي في الإسلام، وتفسير التحرير والتنوير، وجميع هذه الكتب لمحمد الطاهر ابن عاشور، وآثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي خمسة مجلدات.[٢]

يقول ابن الأثير رحمه الله مبيناً فائدة الاطلاع على كلام المتقدمين في المنظوم والمنثور: «فإن في ذلك فوائد جمة؛ لأنه يعلم منه أغراض الناس، ونتائج أفكارهم، ويعرف به مقاصد كل فريق منهم، وإلى أين ترامت به صنعته في ذلك، فإن هذه الأشياء مما تَشْحَذ القريحة، وتُذكي الفطنة.

وإذا كان صاحب هذه الصناعة عارفاً بها ـ تصير المعاني التي ذكرت وتعب في استخراجها كالشيء المُلْقَى بين يديه يأخذ منه ما أراد، ويترك ما أراد.

وأيضاً فإنه إذا كان مطلعاً على المعاني المسبوق إليها قد ينقدح له من بينها معنى غريب لم يسبق إليه، ومن المعلوم أن خواطر الناس ـ وإن كانت متفاوتة في الجودة والرداءة ـ فإن بعضها لا يكون عالياً

---

١ ـ وقد خرجت أخيراً جميع مؤلفات هذا الإمام في موسوعة تقع في خمسة عشر مجلداً.

٢ ـ وقد يسر الله لي انتقاء مائة وستة وثمانين مقالاً لكثير من الكتاب المُحْدَثين وخرجت في ثلاثة مجلدات تحت عنوان: (مقالات لكبار كتاب العربية في العصر الحديث).

كما خرج ـ أيضاً ـ أربعة مجلدات بعنوان (المنتقى من بطون الكتب).

وهي منتقاة من كتب كثيرة متنوعة قديمة وحديثة، وتشتمل على دراسة موجزة لطريقة تلك الكتب وعلى مختارات منها.

على بعض أو منحطاً عنه إلا بشيء يسير، وكثيراً ما تتساوى القرائح والأفكار في الإتيان بالمعاني، حتى إن بعض الناس قد يأتي بمعنى موضوع بلفظ، ثم يأتي الآخر بعده بذلك المعنى واللفظ بعينهما من غير علم منه بما جاء به الأول، وهذا الذي يسميه أرباب هذه الصناعة وقوع الحافر على الحافر».[١]

فالاطلاع على كتابات أرباب البيان مما يشحذ القريحة، ويرتقي بالكتابة، ويثري خيال الكاتب خصوصاً إذا اطلع على مدارس مختلفة من الكُتَّاب؛ لأن فيهم من يطيل ويسهب، وفيهم من يوجز ويقتضب، وفيهم من يبالغ في المعنى ويغلو، وفيهم من يقتصد في اللفظ ولا يسرف، وفيهم من يسهل ويرق، وفيهم من يَشْمُسُ ويصعب.[٢]

وإليك نماذج يسيرة من كتابات أكابر الكتاب السابقين، من كتاب أمراء البيان:

أ ـ **قال عبدالحميد الكاتب** رحمه الله: «واملك نفسك عن الانبساط في الضحك والانفهاق[٣] وعن القطوب بإظهار الغضب وتَنَحُّله[٤]؛ فإن

---

١ ـ المثل السائر لابن الأثير ١/٢٩.

٢ ـ انظر أمراء البيان ص٢٣ـ٢٤.

٣ ـ الاتساع.

٤ ـ تنحل الشيء وانتحله: ادعاه.

فإن ذلك ضعف عن مُلْك سَوْرة الجهل، وخروج من انتحال اسم الفَضل، وليكن ضحكك تبسماً أو كشراً في أحايين ذلك وأوقاته، وعند كل رائع مطرب، وقطوبك إطراقاً في مواضع ذلك وأحواله بلا عجلة إلى السطوة، ولا إسراع إلى الطِّيَرة دون أن يكنفها رويُّة الحلم، وتملك عليها بادرة الجهل». ص٧٧

وقال: «استكثر من فوائد الخير؛ فإنها تنشر المحمدة، وتقيل العثرة، واصبر على كظم الغيظ؛ فإنه يورث الراحة، ويؤمن الساحة، وتَعَهَّدِ العامة بمعرفة دَخَلِهم وتَبَطُّنِ أحوالهم، واستثارةِ دفائنهم؛ حتى تكون منها على رَأْيِ عينٍ، ويقين خبرةٍ؛ فتنعش عديَمهم، وتجبر كسيرهم، وتقوّم أودَهم، وتعلّم جاهلهم، وتستصلح حاسدهم؛ فإن ذلك من فعلك بهم يورثك العزة؛ ويقدمك في الفضل، ويبقي لك لسان الصدق في العاقبة، ويحرز لك ثواب الآخرة، ويرد عليك عواطفهم المستنفرة منك، وقلوبهم المتنحية عنك». ص٨٠

وقال: وإذا صحب أحدكم الرجل فليستشفّ خلائقه، كما يستشف الثوب يشتريه لنفسه، فإذا عرف حسنها وقبيحها أعانه على ما يوافقه من الحسن، واحتال لصرفه عما يهواه من القبيح بألطف حيلة، وأحسن مداراة ورفق؛ فقد عرفتم أن سائس البهيمة إذا كان حاذقاً بسياستها التمس معرفة أخلاقها، فإن كانت رموحاً اتقاها من رجلها، وإن كانت جموحاً لم يُهجْها إذا ركبها، وإذا كانت شموساً توقاها من ناحية يدها، وإن خاف منها عِضاضاً توقاها من ناحية

رأسها، وإن كانت حروناً لم يلاحِها[١] وتَتَبَّعَ هواها في طريقها، وإن استمرت عَطَفَها؛ فَيُسْلِسُ لها قيادها.

ومن هذا الوصف من سائس البهيمة، ورفق سياسته ـ دليل وأدب لمن ساس الناس وعاملهم، وخدمهم وصحبهم. ص٩٥

ب) وقال ابن المقفع في شدة الحاجة إلى التأدب كشدة حاجة الجسم إلى التغذية: «ولسنا إلى ما يُمسك بأرماقنا من المطعم والمشرب بأحوج منا إلى ما يثبت عقولنا من الأدب الذي به تَفَاوُت العقول، وليس غذاءُ الطعام بأسرع في نبات الجسد من غذاء الأدب في نبات العقل، ولسنا بالكد في طلب المتاع الذي يُلتمس به دفع الضُّر والعَيْلة[٢] بأحقَّ منا بالكد في طلب العلم الذي يُلتمس به صلاح الدين والدنيا». ص١٣٠

وقال: «لا يثبت دين المرءِ على حالة واحدة أبداً، ولكنه لا يزال إما زائدا وإما ناقصاً، السعيد يُرَغِّبه الله في الآخرة، حتى يقول: لاشيء غيرها، فإذا هضم دنياه وزهد فيها لآخرته لم يحرمه الله بذلك نصيبه من الدنيا، ولم ينقصه من سروره فيها.

والشقي يرغِّبه الشيطان في الدنيا، حتى يقول: لا شيء غيرها،

---

١ ـ لاحيته ملاحاة ولحاءً: إذا نازعته.

٢ ـ العيلة: بفتح العين الفقر.

فيعجل الله له التنغيص في الدنيا التي آثر مع الخزي الذي يلقى بعدها». ص١٣٢

وقال: «لا تلتمس غَلَبة صاحبك والظفر به عند كل كلمة، ولا تستطيلن عليه بظهور حجتك؛ فإن قوماً قد يحملهم حبُّ الغلبة أن يتعقبوا الكلمة بعد ما تنسى يلتمسون بذلك الغلبة والاستطالة على الأصحاب، وذلك في العقل ضعف، وفي الأخلاق لؤم». ص١٣٤

ومن رسائله المختصرة إلى صديق ولدت له جارية: «بارك الله لكم في الابنة المستفادة، وجعلها لكم زيناً، وأجرى لكم بها خيراً؛ فلا تكرهها؛ فإنهن الأمهات والأخوات والعمات والخالات، ومنهن الباقيات الصالحات، ورب غلامٍ ساء أهله بعد مسرتهم، ورب جاريةٍ فَرَّحت أهلها بعد مساءتهم». ص١٥٦

وله تعزية عن ولد: «أعظم الله على المصيبة أجرك، وأحسن على جليل الرزء ثوابك، وعجل لك الخلف فيه، وذخر لك الثواب عليه». ص١٥٦

وله: «أما بعد: فإن من قضى الحوائج لإخوانه، واستوجب بذلك الشكر عليهم ـ فلنفسه عَمِلَ لا لهم، والمعروف إذا وضع عند من لا يشكره فهو زرع لا بد لزارعه من حصاده، أو لعقبه من بعده، وكتبت إليك ولحالنا التي نحن بها فيما نذكرك حاجة أول ما فيها معروف تستوجب به الشكر علينا، وتدخر به الأيادي قِبَلنا». ص١٥٦

ج) وقال سهل بن هارون: «لا يُقدم على الخطبة إلا اثنان فائق أو مائق، أما الفائق فثقته بنفسه تنفي عنه كل خاطر يورث الخجل والانقطاع، وأما المائق فإنه لا يبالي أخطأ أم أصاب». ص١٧٧_١٧٨

وقال: «والناس موكلون بتعظيم الغريب، واستطراف البعيد، وليس لهم في الموجود الراهن، وفيما تحت قدرتهم من الرأي والهوى - مثل الذي معهم في الغريب القليل، وفي النادر الشاذ، وكل ما كان في ملك غيرهم.

وعلى ذلك زهد الجيران في عالمهم، والأصحاب في الفائدة من صاحبهم.

وعلى هذه السبيل يستطرفون القادم عليهم، ويرحلون إلى النازح عنهم، ويتركون من هو أعظم نفعاً، وأكثر في وجوه العلم تصرفاً، وأخف مؤنة، وأكثر فائدة؛ ولذلك قدم بعض الناس الخارجيَّ على العريق، والطارف على التليد». ص١٧٨

د) وقال أحمد بن يوسف الكاتب: «مجالسة البغضاء تثير الهموم، وتجلب الغموم، وتؤلم القلب، وتقدح في النشاط، وتطوي الانبساط».

وقال: «بالأَقلام تساس الأقاليم».

وقال: «القلم لسان البصر يناجيه بما استتر عن الأسماع إذا نسج حلله، وأودعها حكمه». ص٢٤٣

هـ) وقال إبراهيم بن العباس الصولي: «ووجد أعداءُ الله زخرف باطلهم، وتمويه كذبهم سراباً بقيعة يحسبه الظمآن ماءاً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً، وكَوَمِيْضِ برقِ عَرَضَ، فأسرع، ولمع، فأطمع، حتى انحسرت مُشَرِّقةً مغاربه، وتشعبت مُوَلِّيَةً مذاهبُه، وأيقن راجيه وطالبه ألاّ ملاذ ولا وَزَر، ولا مورد ولا مصدر، ولا من الحرب محصر.

وهناك ظهرت عواقبُ الحقِّ منجيةً، وخواتم الباطل مردية، سنة الله فيما أزاله، وأداله، ولن تجد لسنة الله تبديلاً، ولا لقضائه تحويلاً». ص٢٦٧

وكتب شفاعة لرجل إلى بعض إخوانه: «فلان مما يزكو شُكْرُه، ويَحْسُنُ ذِكْرُه، ويَعنيني أمرُه، والصنيعة عنده واقعة موقعها، وسالكة طريقها:

وأفضل ما يأتيه ذو الدين والحجا إصابة شكر لم يَضِعْ معه أجرُ

ص٢٧٠

وقال: «الكريم أوسع ما تكون مغفرتُه إذا ضاقت بالمذنب معذرته». ص٢٧٠

وقيل له: «إن فلاناً يحب أن يكون لك ولياً فقال: أنا والله أُحب أن يكون الناس جميعاً إخواني، ولكني لا آخذ منهم إلا من أُطيق قضاء حقه، وإلا استحالوا أعداء؛ وما مثلهم إلا كمثل النار قليلها مُقْنع، وكثيرها محرق».

وكان يقول: «مثل الأصدقاء كالنار، قليلها متاع، وكثيرها بوار».
ص٢٧١

وقال: «لو وزنت كلمات النبي -عليه السلام-: «إنكم لن تَسَعُوا الناس بأموالكم، فسعوهم بأَخلاقكم» بكلام أهل الأرض لرجحت».
ص٢٧١

و) وقال محمد بن عبدالملك الزيات في عهد الواثق على مكة بحضرة المعتصم، وهو: «أما بعد: فإن أمير المؤمنين قد قَلَّدك مكةَ وزمزمَ، وتراثَ أبيك الأقدمِ، وجدِّك الأكرم، وركضةَ جبريلَ، وسقيا إسماعيل، وحَفَرَ عبدالمطلب، وسقايةَ العباسِ؛ فعليك بتقوى الله -تعالى- والتوسعة على أهل بيته».

قال الأستاذ محمد كرد علي معلقاً على هذه الفقرة: «وهذا من الإيجاز المعجب الذي تمليه قريحة اعتادت البديهة واعتادت الروية، وما أحلى قوله: «ركضة جبريل، وسقيا إسماعيل»، وهي من التعابير التي يفترعها أمثاله من الكاتبين». ص٢٩٧-٢٩٨

ز) وقال الجاحظ: «الكتاب نعم الذخر والعقدة، والجليس والعمدة، ونعم النشوة، ونعم النزهة، ونعم المستغلّ والحرفة، ونعم الأنيس ساعة الوحدة، ونعم المعرفة ببلاد الغربة، ونعم القرين والدخيل والزميل، ونعم الوزير والنزيل.

والكتاب وعاءٌ مليءَ علماً، وظَرْف حشي ظَرفاً، وإناءٌ شحن مزاحاً؛ إن شئت كان أَعيى من باقل، وإن شئت كان أبلغ من سحبان وائل، وإن شئت سرّتك نوادره، وشَجَتك مواعظه.

ومن لك بواعظ مثله، وبناسكٍ فاتك، وناطق أَخرس؛ ومن لك بطبيب أَعرابي، ورومي، وهندي، وفارسي ويوناني، ونديم مولّد، وحبيب ممتع؟

ومن لك بشيء يجمع لك الأول والآخر، والناقص والوافر، والشاهد والغائب، والرفيع والوضيع، والغث والسمين، والشكل وخلافه، والجنس وضده؟» ص٣٢٨-٣٢٩

وقال: «والكتاب هو الذي يؤدي إلى الناس كتب الدين، وحساب الدواوين، مع خفة نقله، وصغر حجمه، صامت ما أسكتّه، وبليغ ما استنطقته، ومن لك بمسامر لا يبتديك في حال شغلك، ويدعوك في أوقات نشاطك، ولا يحوجك إلى التجمل له، والتذمم منه؟». ص٣٣١

وقال: «لو ملكت عقوبةَ الحاسدِ لم أعاقبه بأكثر مما عاقبه الله به، بإلزامه الهموم قَلْبَهُ، وتسليطها عليه، فزاده الله حسداً، وأقامه عليه أَبداً». ص٣٣٥

وأبان عما ارتآه لمداواة داء الحاسد بقوله: «فإِذا أحسست -رحمك الله- من صديقك بالحسد فأقلل ما استطعت من مخالطته؛ فإنه أعون

الأشياء لك على مسالمته، وحصّن سرّك منه تسلم من شذى[١] شره، وعوائق ضره، وإياك والرغبةَ في مشاورته؛ فتمكن نفسك من سهام مشاررته». ص٣٣٥ـ٣٣٦

وقال: «ومتى رأيت حاسداً يصوِّب لك رأياً، وإن كنت مصيباً، أو يرشدك إلى الصواب، وإن كنت مخطئاً، أو نصح لك في غيبته عنك، أو قَصَّر من عيبه لك ـ فهو الكَلْب الكلِب، وَالنمر الحرِب، وَالسم القشب، وَالفحل القَطِم[٢] وَالسيل العرِم.

إن مَلَك قتل وسبى، وإن مُلك عصى وبغى، حياتك موته وثبوره، وموتك عرسه وسروره؛ يُصَدِّق عليك كل شاهد زور، ويكذّب فيك كل عَدْل مرضي؛ لا يحب من الناس إلا من يبغضك، ولا يبغض من الناس إلا من يحبك، عدوّك بطانته، وصديقك علاوته...

أَحسن ما تكون عنده حالاً أَقلّ ما يراك مالاً، وأكثر ما تكون عيالاً، وأعظم ما تكون ضلالاً، وأفرح ما يكون بك أقرب ما تكون بالمصيبة عهداً، وأبعد ما تكون من الناس حمداً؛ فإذا كان الأمر على هذا فمجاورةُ الأموات، ومخالطة الزَّمَنى، والاكتنان

---

١ ـ الشذى كالأذى وزناً ومعنى.

٢ ـ القطم كَكَتِفٌ: الكثير العض، والقشب: الخلط وسقي السم.

بالجدران، ومصّ المصران، وأكل القردان ـ أَهون من معاشرة مثله، والاتصال بحبله...

وما أرى السلامة إلا في قطع الحاسد، ولا السرور إلا في افتقاد وجهه، ولا الراحة إلا في صرم مداراته، ولا الربح إلا في ترك مصافاته ...». ص٣٣٦

وقال: «وما لقيت حاسداً قط إلا تبين مكنونُه بتغير لونه، وتخوّص عينه، وإخفاءِ سلامه، والإقبال على غيرك، والإعراض عنك، والاستثقال لحديثك، والخلاف لرأْيك».

«من شأن الحاسد تهجين ما يَحْسد عليه، ومن خلق المحروم تقبيح ما حُرِم وتصغيره والطعن على أهله».

«والذي يحسد فعلى ما لا حدَّ له يكون حسده؛ فحسده متسع بقدر اتساع ما حسد عليه».

«ما خالط الحسدُ قلباً إلا لم يمكنه ضبطه، ولا قدر على تشحينه[1] وكتمانه، حتى يتمرد عليه في ظهوره وإعلانه، فيصده ويستعمله، ويستعطفه لقهره عليه، ولهو أغلب على صاحبه من السيد على جنده، ومن السلطان على رعيته، ومن الرجل على زوجته، ومن الآسر على أسيره». ص٣٣٦ـ٣٣٧

---

١ ـ أشحن السيف أغمده وسله ضد.

١٣- سلامة الذوق، ومراعاة مقتضيات الأحوال

فالذوق، وجمال المنطق، وكمال الأدب نعمة ـ يهبها الله لمن يشاء من عباده.

وكثافة النفس ونبوُّ العبارة بلية وأي بلية؛ فيحسن بالكاتب أن يلاحظ سلامة الذوق، وذلك بمراعاة حال القراء، واستشعار أنه أمامهم ينظر في تَلَقِّيهم لما يكتب.

ولا يعني ذلك أن تجاملهم على حساب الحقيقة، وإنما تحسن المدخل، وتتلطف في الوصول إلى ما تريد؛ فتسايرهم إلا أن ينحرفوا عن الرشد، وتتجنب ما يؤلمهم إلا أن يتألموا من صوت الحق؛ فذلك مما يأخذ بالألباب، ويجعل الكتابة تأخذ طريقها إلى القلوب.

ولهذا كان حرياً بالكاتب أن يكون ذا دراية بأحوال الناس، وأن يصوغ كلامه بما تقتضيه تلك الحال؛ فالناس مختلفون مشاربَ وعاداتٍ، وأخلاقاً، وسِنًّا، ومهنةً، ومرتبةً.

ولكل طائفة من الناس أحوال تقتضي نوعاً من الكتابة لا تقتضيه أحوال الجماعة الأخرى؛ فالجماعة الثائرة ـمثلاًـ تكاتب بعبارات هادئة؛ لتكون برداً وسلاماً على القلوب.

والجماعة الخنسة تكاتب بعبارات مثيرة للحمية، موقظة للهمة، حافزة للعزيمة.

والجماعة التي شطت وركبت رأسها تكاتب بعبارة فيها قوة

العزم، ونور الحق، وفيها إرعادة المنذر، ويقظة المنقذ، وفيها روح الرحمة، وحسن الإيثار؛ ليجتمع الترغيب مع الترهيب ومع سيف النقمة ريحان الرحمة.

ثم إن للشباب نوعاً من الكتابة يثير حماسهم، ويوقظ قلوبهم.

والعلماء يجتذبهم التوقير، وعمق الكلام. ودقته.

ومكاتبة الرؤساء تقتضي تجملاً بالحياء، والرزانة، والركانة، كما تقتضي ابتعاداً عن التملق المزري، وعن أي مظهر من مظاهر التعالي، وتقتضي أخذاً بالتلطف، وحسن المدخل، والتلميح بالاعتراض إن كان هناك ما يقتضي ذلك.

ومن مكملات الكتابة، ومما يدخل في سلامة الذوق أن يتجنب الكاتب تكرار الألفاظ إذا لم يكن ثَمَّ حاجة لذلك.

قال أبو هلال العسكري رحمه الله متحدثاً عما ينبغي للكاتب:

«وينبغي أن يكثر الألفاظ عنده؛ فإن احتاج إلى إعادة المعاني أعاد ما يعيده منها بغير اللفظ الذي ابتدأه، مثل قول معاوية رضي الله عنه: (من لم يكن من بني عبدالمطلب جواداً فهو دَخيل، ومن لم يكن من بني الزبير شجاعاً فهو لَزيق، ومن لم يكن من ولد المغيرة تيَّاهاً فهو سَنيد).

فقال: (دخيل)، ثم قال: (لزيق)، ثم قال: (سنيد).

والمعنى واحد، والكلام على ما تراه أحسن، ولو قال: لزيق، ثم أعاده لسمج»[1].

---

١ ـ كتاب الصناعتين ص١٥٨.

١٤- البعد عن لغة التعالي والاستفزاز

وهذه الفقرة قريبة من الفقرة الماضية؛ فالذوق العام يقتضي أن يكون الإنسان عموماً خفيف المحمل على نفوس الآخرين.

وإن من أولى الناس بالتخلق بذلك الخلق الكاتبَ؛ لأنه يعرض عقله على الناس؛ فيحتاج إلى تلطف، وحسن مدخل.

وإن من البلايا التي يبتلى بها بعض الكتاب أن يكون ثقيلاً على قرائه، وذلك من خلال استعماله لغة التعالي، والاستفزاز، وتعمد الإثارة؛ فتراه لا يحسن إلا هذا الطراز من الكتابة.

ولا يراد من ذلك ما يمارسه بعضهم من النقد الهادف، والتسديد المثمر، والإصلاح المنشود؛ فذلك مطلب ملح، وغاية مبتغاة، والقائم بذلك مشكور مأجور إن ابتغى ما عند الله.

وإنما المقصود ألا يُغْفِلَ مَنْ يمارس تلك الأعمالَ جانبَ الذوق، بحيث لا يبالي بمشاعر الآخرين، ولا يأنف من مواجهتهم بما يكرهون؛ بحجة أنه يروم الإصلاح؛ فمراعاة المشاعر مطلب اجتماعي، ومقصد شرعي؛ فالناس يحبون لِين الجانب، وبسط الوجهِ.

والقلوب تُقْبل على من يتواضع لها، وتَنْفُر ممن يزدريها، ولا يُكَلِّمها إلا من عَلُ؛ فاللائق بالكاتب أن يصوغ كلامه بطريقة تكون أقرب إلى القلوب والقبول؛ فيحسن به أن يكون متواضعاً، بعيداً عن جفاء الطبع، وقساوة القلب، والتعالي على الناس.

ويجدر به أن يترفع عن العبارات المشعرة بتعظيم النفس، كحال من يكثر من إدارج ضمير المتكلم (أنا) أو ما يقوم مقامه كأن يقول (في رأيي)، أو (حسب خبرتي)، أو (هذا ما توصلت إليه) ونحو ذلك.

وأَجْدَر بالبعد عن ذلك ما كان فيه تفخيم للنفس كالإتيان بضمير الجمع، كأن يقول: (هذا رأينا) و(هذا ترجيحنا)، أو (هذا ما توصلنا إليه).

ومن ذلك أن يكرر كلمة: (نَقُول) و(قلنا) ونحو ذلك من العبارات الفجة التي تنم عن نقص وغرور، خصوصاً إذا صدرت ممن ليس له مكانة.

فهذا كله مجلبة لتباعد الأنفس، وتناكر الأرواح، وقلة التأثير.

وبدلاً من ذلك يحسن به أن يستعمل الصيغ التي توحي بالتواضع، وعزو العلم لأصحابه، كأن يقول: (ويبدو للمتأمل كذا وكذا)، أو يقول: (ولعل الصواب أن يقال: كذا وكذا) ونحو ذلك من العبارات المشعرة بالتواضع، واهتضام النفس.

ولا بأس باستعمال العبارات المشعرة بالتعظيم إذا صدرت من ذي المكانة والقدر خصوصاً إذا تكلم باسم المؤسسة أو الجهة التي ينتمي إليها.

وكل ذلك راجع إلى ذوق الكاتب، وتَلَقّي القراء لذلك بالقبول.

ومن صور الاستفزاز ما يمارسه بعض الكتاب من كثر اللوم، والعتاب، والنقد، والدخول في المهاترات، والحديث في كل شأن من الشؤون.

وهذا ما سيتبين في فقرات قادمة.

١٥- نبل الهدف، وسلامة القصد

بحيث يكون الباعث على الكتابة نية الإصلاح، ورغبة الوصول إلى الحق، ونشر الفضيلة، والارتقاء بالأخلاق، وبث العلم، ونحو ذلك من المقاصد النبيلة الرفيعة الشأن.

فذلك هو الواجب على كل من يتصدى للكتابة، لا أن يكون باعثها المراء، والجدال، وطمس الحق، وإظهار الفضل، وانتقاص الآخرين.

ولعل هذا هو السر في خلود كثير من الكتابات، وتجدد نفعها.

كما أن لهذا المعنى ـ في المقابل ـ أثره في اضمحلال كثير من الكتابات، وقلة نفعها، بل وتجدد ضررها.

١٦- مراعاةُ أصول النقد وقواعده

فالكاتب أحوج ما يكون إلى ذلك؛ فالنقد وسيلة كبرى للرقي والنهوض والإبداع؛ فبه تَرْشُد المسيرة، ويبلغُ البنيانُ تمامَهُ، ويعلو شأنُ الأفراد، وتصعد المجتمعات درجات في مراقي السعادة والمجادة.

والذي يَحْسُن التنبيهُ عليه ههنا أمور لا ينبغي أن تغيب عن ذهن الكاتب حال النقد.

فمن ذلك أن النقد أشبه بالدواءِ، والدواء يُحتاج فيه إلى عواملَ عِدةٍ كي يَقَعَ موقِعَهُ؛ فيكون ناجعاً مفيداً؛ فلا بد ـقبل استعماله ـ من دقة التشخيص، وتحسس الداء، ومعرفة مقدار ما يستعمل منه،

ومدى قابلية المحل الذي يوضع فيه.

ثم إن تلك المهمة تحتاج إلى طبيب حاذق ناصح.

فإذا لم تُراعَ تلك الأمورُ كان ضررُ الدواءِ أكثرَ من نفعه.

وكذلك الحال بالنسبة للنقد؛ فلا بد فيه من بصير عاقل يمتلك أدوات النقد، وكيفية استعماله.

ثم إنه لا تلازم بين النقد وبين الإسقاط والتجريح، وليس من ضرورة النقد تَتَبُّع المساوئ والمثالب.

بل إن التأكيد على المحاسن والمناقب من أهم مهمات النقد.

كما أنه لا يلزم من النقدِ الإساءةُ إلى أهل المُنْتَقَدِ، ولا إلى بلده، أو لونه، أو جنسه، أو عرقه، أو هيئته.

وإنما يكون النقد على أفكاره، وما يطرحه؛ فالنقد شيء، والطعن شيء آخر.

ثم إن الناقد البصير لا غنى له عن الذوق، وحسن المدخل، ولطف الإشارة، وجمال العبارة؛ فلا يكفي أن يكون لديه معلومةٌ صحيحةٌ لِنَقْدِ أمرٍ يستحق النقد، فيلقيها في أي صورة شاء.

بل لا بد أن يُراعِيَ ـ في ذلك ـ الذوقَ، واللطفَ، وحسنَ التأتي.

ولا يحسن بالإنسان أن تسيطر عليه روح النقد، فيكون سيفاً مصلتاً ينظر إلى الأمور من عين مُغَبَّشَةٍ يعلوها الركام والضباب؛ فتراه بعد ذلك يتكلف النقد، ويبحث عن العيوب، ويبالغ في تتبع السقطات.

كما يحسن بالناقد أن يتجنب في نقده لغة التهوين ولغة التهويل؛

فالأولى تضعف الحق الذي يدعو إليه الناقد، ويدَّعي الدفاع عنه، والثانية تطمس معالم الحق، وتصد عن سبيله.

والحقيقة -كما قيل- تضيع بين التهوين والتهويل.

ويجمل به -أيضاً- أن يراعي أتباع المُنْتَقَد؛ فإنهم إذا رأوا أن متبوعهم أخطأ ورُدَّ عليه بأسلوب راقٍ كان ذلك أدعى لأن يتجنبوا ما وقع به متبوعهم، وأحرى ألا يتعصبوا له، ويقلدوه في الباطل.

بخلاف ما إذا كان أسلوب النقد جارحاً لاذعاً مقذعاً؛ فإن ذلك قد يدعوهم إلى التعصب لمتبوعهم ولو كان مخطئاً.

فيحسن بالكاتب الناقد -إذاً- أن يحرص على طهارة المنطق، وطلاوة العبارة، وأن يتجنب الكلمات الجافية المستكرهة، ويحذر من إطلاق عبارات السب، والتسفيه؛ فالكتابة التي تحرر برحابة صدر وسموِّ عبارة تلقى من القبول ما لا تلقاه الكتابة التي يخالطها السفه والطيش.

يقال هذا لأن فئاماً من الناس يَتَقَحَّمون ميدان النقد، وهم ليس في عِيره ولا نفيره، فتراهم يبدون آراءهم في كل صغيرة وكبيرة، سواء في مسائل العلم، أو الأدب، أو السياسة، أو الاقتصاد، أو غيرها؛ فيضعون الناس تحتِ مشرحتهم: نقداً، وتفنيداً، وتأييداً دون مراعاة للتخصص، ودون أن تكون لديهم أدوات النقد، وآدابه، ودون أن يكون لديهم قدر من العدل، وسعة الصدر، وبعد النظر؛ فيكون

نقدهم ميداناً للمهاترات، والخصومات.

وإذا الخصمان لم يهتديا سنة البحث عن الحق غبر

كما أن هناك من ينقد نقداً صحيحاً، ولكنه يطرحه في قالب السخرية، والتجزع، والجفاء.

وبالجملة فإن النَّقد البنَّاءَ الهادفَ والسعي إلى الإصلاح في أي شأن من الشؤون يُعَدُّ من أعظم أسباب الارتقاء بالأمم والأفكار؛ فهو أشبه ما يكون بالحماية للبناء الذي يُحتاج فيه إلى أن يُتَعاور، ويُتَعاهد ما بين الفينة والأخرى، حتى يقوى، ويشتد.

ولا ريب أن البناء لا يكمل حُسْنُه بجودة بنائه، وتماسك أجزائه فحسب.

بل لا بد له ـ مع ذلك ـ من الطلاء الجميل الذي يُظهر رونقه.

فالنقد الهادف بمثابة البناء والحماية للبناء، وحسن العرض وجماله بمنزلة الطلاء الذي يُحَسِّن صورته، ويُجَمِّلها في العيون.

١٧- مراعاة العدل، وعامل الزمان والمكان حال الرد

فالعدل قِوامُ الحياة، وهو مما تواطأت على حسنهِ الشرائعُ الإلهيةُ، والعقولُ الحكيمةُ، وتمدَّح بادعاء القيام به عظماء الأمم، وسجلوا تَمَدُّحَهم على نقوش الهياكل من كلدانية، ومصرية، وهندية ـ كما يقول ابن عاشور رحمه الله ـ.[1]

---

١ ـ انظر أصول النظام الاجتماعي في الإسلام للشيخ محمد الطاهر بن عاشور ص١٨٦.

وإن من أعظم نعم الله على المرء أن يَطْبعه على العدل وحبه، وعلى الحق وإيثاره.

وأما من طبع على الجور واستسهاله، وعلى الظلم واستخفافه فلييأس من أن يصلح نفسه، أو يقوِّم طباعه، وليعلمْ أنه لا يَصْلُح في دين، ولا خلق محمود ـ كما يقول ابن حزم رحمه الله ـ.(١)

والحديث عن العدل، وحسنه، والآثار الواردة في ذلك يطول.

وسيكون الكلام ههنا منحصراً في مسألة في العدل.

ألا وهي مراعاة عامل الزمان والمكان والحال عند الحكم على الناس.

فقد يكون لعالمٍ رأيٌ في قضيةٍ، أو مسألة، أو نازلة.

وقد يكون لعامل الزمان أو المكان أو الحال التي قال فيها ما قال ـ أثر في ذلك.

وقد تكون القضية، أو المسألة، أو النازلة خَفِيَّةٌ، أو مشتبهة في الوقت الذي عولجت فيه، أو تُكُلِّم فيه بذلك الشأن.

فإذا جاء زمان بعده، أو نَظَر إليها مَنْ كان في مكان آخر ـ ربما لا يكون فيها خفاءٌ، ولا اشتباهٌ.

وبناءً على ذلك فإنه يحسن بمن اطلع على رأي يراه مخالفاً للصواب، وأراد أن يُفنِّد ذلك الرأي ألا يَفْصِلَه عن الزمان الذي قيل فيه، أو البيئة

---

١ ـ انظر الأخلاق والير لابن حزم ص٣٧.

التي عاش فيها صاحب الرأي، أو الظروف التي كانت تحيط به.

فإذا راعى تلك الأمور كان حرياً بالعدل، والإنصاف بعيداً عن الظلم، والتزيُّد، والاعتساف.

والذي يُلحظ في كثير من الأحيان أن هناك تفريطاً في هذا الجانب؛ فكثيراً ماتقرأ أو تسمع أن فلاناً انتقد فلاناً، أو اشتد عليه؛ بحجة أنه قال: كذا وكذا، فرماه بعد ذلك بما ليس فيه، وجَرَّده من كل فضيلة، وألزمه بما لا يلزم.

ولو أنه راعى عامل الزمان، والمكان، والحال الذي قال فيه ذلك المُنْتَقَدُ ما قال ـ لربما تغير مسار الحديث.

أما إذا أُخذ كلامُه مجرداً من جميع الاعتبارات فإن ذلك مدعاة للظلم، والهضم.

واللائق في مثل هذه الأحوال أن يلزم الكاتب العدل، فلا يُحَمِّلَ القائل ما لا يحتمله، أو يلزمه بما لا يلزم.

ولابد أن يراعى ـ في ذلك ـ الحفاظ على أقدار الرجال، وأن يراعى ـ كما مر ـ أَتْباع ذلك الرجل الذي رُدَّ عليه؛ فإذا كان الكاتب بصيراً لطيفاً يوصل الحق، ويبين الخطأ بلطف، وحسن أسلوب ـ كان ذلك أدعى لقبول قوله، وحصول الفائدةِ المرجوَّةِ من نقده.

وإلا كان كمن يَخْبِطُ خَبْطَ عشواءَ، ويركب مَتْنَ عمياءَ.

وإن من السنن الحميدة في ذلك ما يُسْلك في الرسائل العلمية الجامعية التي تبحث في مسائل، أو أعلام؛ فإن تلك الرسائل تشتمل

على دراسة للعوامل التاريخية، والجغرافية المحيطة بتلك الدراسة.

كما أنها تشتمل على الظروف التي انتشرت فيها تلك المقولة، وتحتوي على الأحوال والأطوار التي مرت بتلك الشخصية إن كانت الدراسة تبحث في عَلَمٍ من الأعلام.

ولا ريب أن ذلك أقرب إلى روح العلم، والعدل، وأبعد عن مسلك الجهل والظلم.

١٨- لزوم الاعتدال

وذلك بأن يكون الكاتب متزناً في طرحه، بعيداً عن التهوين والتهويل؛ فالحقيقة تضيع بين ذلك، والعرب تقول في أمثالها: «خير الناس هذا النمط الأول والأوسط» يعني بين المقصر والغالي.

وذلك مما يدل على حكمة الكاتب، ورجحان عقله، وحرصه على الحقيقة.

ومن الاعتدال في الألفاظ أن تكون رشيقة واضحة، وأن يكون الكلام حالاً بين حالين: بين الوحشي الغريب، والسوقي القريب.

ومن الاعتدال: أن يبتعد عن التكلف؛ فلا يبالغ في سجع، ولا يقصد إلى التعمية، ولا يأتي بالعبارات القلقة.

قال أبو هلال العسكري ﷺ: «الكلام -أيدك الله- يَحْسُن بسَلاسَتِه، وسهولته، ونصاعته، وتخيُّر لفظه، وإصابة معناه، وجودة مَطَالِعه، ولينِ مقاطعه، واستواء تقاسيمه، وتعادُلِ أطرافه، وتشابه أعجَازِه

بهَوَادِيه[١]، وموافقة مآخِيره لمبَادِيه، مع قِلَّةِ ضروراته، بل عدمها أصلاً، حتى لا يكون لها في الألفاظ أثر، فتجد المنظومَ مثل المنثور في سهولة مَطْلَعه، وجودة مَقْطَعِه، وحسن رَصْفِه وتأليفه، وكمال صَوْغه وتركيبه.

فإذا كان الكلام كذلك كان بالقبول حقيقاً، وبالتحفظ خَلِيقاً».[٢]

وقال رحمه الله: «وأخبرنا أبو أحمد عن الصولي عن الغلابي عن طائع وهو العباس بن ميمون، من غلمان ابن ميثم، قال: قيل للسيد: ألا تستعمل الغريبَ في شِعْرك.

فقال: ذاك عِيٌّ في زماني، وتكلُّف مِنِّي لو قلته، وقد رُزِقت طبعاً واتِّساعاً في الكلام، فأنا أقول ما يعرفه الصغير والكبير، ولا يحتاج إلى تفسير، ثم أنشدني:

أيــا رَبِّ إني لم أُرِدْ بالــذي بــه مَدَحْتُ عَلِيّاً غـير وجهـك فـارحم

فهذا كلام عاقل يضع الشيء موضعه، ويستعمله في إبَّانه».[٣]

وقال أبو هلال: «وإياك والتوعّر؛ فإن التوعُّرَ يُسْلِمُك إلى التعقيد، والتعقيدُ هو الذي يَسْتَهْلِكُ معانيك، ويشين ألفاظك، ومَنْ أراد معنى كريماً فليلتمس له لفظاً كريماً؛ فإن حقَّ المعنى الشريفِ اللفظُ الشريف، ومن حقِّهما أن يصونهما عما يدنسهما ويفسدهما

---

١ ـ الهادي: العنق والمتقدم وجمعه الهوادى.

٢ ـ كتاب الصناعتين ص٥٥.

٣ ـ كتاب الصناعتين ص٦١.

ويهجنهما، فتصير بهما إلى حدٍّ تكون فيه أسوأ حالاً منك قبل أن تلتمس منازل البلاغة، وتَرْتَهِنَ نفسك في ملابستهما»[١].

وقال: «وأجود الكلام ما يكون جزلاً سهلاً، لا ينغلق معناه، ولا يستبهم مغزاه، ولا يكون مكدوداً مستكرهاً، ومُتوعراً مُتَقَعِّراً، ويكون بريئاً من الغثاثة، عارياً من الرثاثة.

والكلام إذا كان لفظه غَثًّا، ومعرضه رثاً كان مردوداً ولو احتوى على أجلِّ معنىً وأنبله وأرفعه وأفضله»[٢].

وبالجملة فإن أجود الكلام: السهلُ الممتنع[٣]؛ السهل الذي يفهمه من قرأه وسمعه، الممتنع: المتعذر على من رام أن يكتب أو يقول مثله.

قال أبو هلال العسكري رحمه الله: «أخبرنا أبو أحمد قال: أخبرنا الصولي قال: حدثنا أحمد بن إسماعيل قال: وصف الفضلُ بن سهل عمرو بنَ مسعدة فقال: هو أبلغ الناس، ومن بلاغته أن كل أحد يظن أنه يكتب مثل كُتبه؛ فإذا رامها تَعَذَّرت عليه»[٤].

---

١ ـ كتاب الصناعتين ص١٣٤.

٢ ـ كتاب الصناعتين ص٦٧.

٣ ـ انظر كتاب الصناعتين ص٦١.

٤ ـ كتاب الصناعتين ص٦١.

١٩- توظيف الثقافة والمعارف لخدمة الموضوع

فمن أعظم ما يرتقي بالكتابة، ومن أجمل ما يحسن بالكاتب ـ أن يوظِّف طاقاتِه وثقافتَه، ومعارفَه لخدمة الغرض الذي يرمي إليه؛ لأجل أن يكون موضوعه متكاملاً مُشْبعاً من جميع الجوانب؛ فيجتمع فيه الدليل الشرعي، والشاهد التاريخي، والنكتة البلاغية، والنادرة الأدبية، والبيت الشارد، والمثل السائر، وهكذا...

هذا وإن كتب الأوائل حافلة بما يشهد لتنوع المصادر، وتوظيف الثقافة والمعارف لخدمة الموضوع. وكذلك بعض كتابات المتأخرين.

وإليك طرفاً من هذا القبيل مما رقمته أقلام بعض كتاب العصر:

يقول الشيخ محمد الخضر حسين رحمه الله في رسالة الحرية في الإسلام: «وإذا علمت نفسٌ طاب عنصرها، وشرف وجدانها أن مطمح الهمم إنما هي غاية، وحياة وراء حياتها الطبيعية ـ لم تقف بسعيها عند حد غذاء يقوتها، وكساء يسترها، ومسكن تأوي إليه.

بل لا تستفيق جهدها، ويطمئن بها قرارها إلا إذا بلغت مجداً شامخاً يصعد بها إلى أن تختلط بكواكب الجوزاء». ص١٠

ويقول: «وكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه من العلم بقوانين الشريعة، والخبرة بوجوه السياسة في منزلة لا تطاولها سماء.»[١]

---

١ ـ هذا تضمين لبيت البوصيري:

كيف ترقى رقيك الأنبياء يا سماءً ما طاولتها سماء

=

ومع هذا لا يبرم حكماً في حادثة إلا بعد أن تتداولها آراء جماعة من الصحابة.

وإذا نَقَل له أحدُهم نصاً صريحاً ينطبق على الحادثة قال: الحمد لله الذي جعل فينا من يحفظ عن نبينا». ص٢١

ويقول: «وأهم فوائد المشورة تخليص الحق من احتمالات الآراء.

وذهب الحكماء من الأدباء في تصوير هذا المغزى وتمثيله في النفوس إلى مذاهب شتى، قال بعضهم:

إذا عـنَّ أمـرٌ فاستـشر فيـه صـاحباً   وإن كنتَ ذا رأي تشيرُ على الصحب
فـإني رأيـتُ العـينَ تجْهَـلُ نَفْـسَهـا   وتدرك ما قد حلَّ في موضع الـشهب

وقال آخر:

اقْـرِنْ برأيـك رأيَ غـيرك واستـشر   فـالحقُّ لا يخفـى عـلى الاثنيـن
والمـرءُ مـرآةٌ تريـهِ وجهَـه   ويـرى قفـاه بِجَمْـعِ مرآتيـن

وقال آخر:

الـرأيُ كالليـل مـسوداً جوانبُـه   والليـلُ لا يـنجلي إلا بمـصباح
فاضـمم مـصابيحَ آراءِ الرجـال إلى   مصباحِ رأيـك تـزددْ ضـوءَ مـصباحِ

ص٢٥

= والشيخ محمد الخضر رحمه الله من أرباب البيان، خصوصاً في باب الاقتباس والتضمين؛ فهو فارس لا يشق له غبار في هذا الميدان.

ويقول: «لم تغادر الشريعة صغيرة ولا كبيرة من وجوه التصرفات في الأموال إلا أحصتها، وعلقت عليها حكماً عادلاً». ص٣٤

ويقول: «وأما الآيات الواردة في سياق التزهيد، والحط من متاع الحياة الدنيا فلا يقصد منها ترغيب الإنسان؛ ليعيش مجانباً للزينة، ميت الإرادة عن التعلق بشهواته على الإطلاق.

وإنما يقصد منها ـ فيما نفهمه ـ حكم أخرى كتسلية الفقراء الذين لا يستطيعون ضرباً في الأرض، ومَنْ قَصُرَتْ أيديهم عن تناولها؛ لئلا تضيق صدورُهم على آثارها أسفاً.

ومنها تعديل الأنفس الشاردة، وانتزاعُ ما في طبيعتها من الشَّرَهِ، والطمع؛ لئلا يخرجا بها عن قصد السبيل، ويتَطَوَّحا بها في الاكتساب إلى طرق غير لائقة.

فاستصغارُ متاع الدنيا، وتحقيرُ لذائذها في نفوس الناس يرفعهم عن الاستغراق فيها، ويُكْبِرُ بهممهم عن جعلها قبلةً يولون وجوههم شطرها حيثما كانوا». ص٣٨

ويقول: «حب المال هو الذي ينزع من فؤاد الرجلِ الرأفةَ ويجعل مكانها القسوة والفظاظة، حتى إذا أظلم الأفق، واسودّ جناح الليل[1]

---

١ ـ هذا تضمين من المؤلف ﷺ لقول عمر بن أبي ربيعة:

إذا اسود جنح الليل فلتأت ولتكن ... خطاك خفافاً إن حراسنا أسدا

تأبط خنجراً، أو تقلد سيفاً، وذهب يخطو خطاً خفافاً؛ ليأتي البيوت من ظهورها، ويمد بسبب إلى أمتعتها، فإذا دافعه صاحبها أذاقه طعم المنون؛ وانصرف ثملاً بلذة الانتصار». ص٤٣-٤٤

ويقول: «ولهذا افتقرت داعية حب المال إلى وازع يسدد طيشها، **ويكسر من كعوبها إلى أن تستقيم قناتها.** [١]

والوازع ما ورد في مجمل الشريعة ومُفصَّلها من الأصول القابضة على أيدي الهداجين حول اختلاسها، والعاملين على اغتصابها، أو التصرف فيها بغير ما يأذن به صاحبها». ص٤٤

ويقول: «فمن تحيز عن أمته، وطفق يرمي في وجوههم بعبارات الازدراء، وينفث في كأس حياتهم سماً ناقعاً - لا نَصِفُه بصفة الغيرة، والوطنية، **وإن شُغِفَ بحب ديارهم، وقبَّلها جداراً بعد جدار** [٢]».

ص٤٩

١- هذا تضمين للشاهد النحوي في باب نصب المضارع:

وكنت إذا غمزت قناة قوم ... كسرت كعوبها أو تستقيما

٢- هذا تضمين لقول الشاعر:

أمر على الديار ديار ليلى ... أقبل ذا الجدار وذا الجدارا

وما حبُّ الديار شغفن قلبي ... ولكن حب من سكن الديارا

ولو تتبع أحد هذا الفن - أعني الاقتباس والتضمين - في مؤلفات الشيخ رحمه الله لخرج بمادة علمية كبيرة.

ويقول: «وقد دارت هذه الكلمة ـ كلمة الحرية ـ على أفواه الخطباء، ولهجت بها أقلام الكاتبين ينشدون ضالتها عند أبواب الحكومات، ويقفون عند مكانها، وتمكين الراحة من مصافحتها ـ وقوفَ شحيحٍ ضاع في الترب خاتمه[1]». ص١٦

ويقول الشيخ محمد الخضر في كتابه: (نقض كتاب في الشعر الجاهلي لطه حسين): «فالقلم الذي يناقش كتاب «في الشعر الجاهلي» إنما يطأ موطئاً يغيظ طائفة احتفلت بهذا الكتاب، وحَسِبْته الطعنة القاضية على الإسلام وفضل العرب ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْراً﴾».

وقال: «وقع نظري تحت هذا الكتاب، وكنت على خبرة من حذق مؤلفه في فن التهكم ولو بالقمر إذا اتَّسق، والتشكيك ولو في مطلع الشمس الضاربة بأشعتها في كل واد؛ فأخذت أقرأه بنظر يزيح القشر عن لبابه، وينفذ من صريح اللفظ إلى لحن خطابه.

وما نفضت يدي عن مطالعة فصوله، حتى رأيتها شديدة الحاجة إلى قلم ينبِّه على علاَّتها، ويردُّ كل بضاعة على مستحقها.

وما هو إلا أن ندبت القلم لقضاء هذه المآرب، وسداد هذا العوز

---

١ ـ هذا تضمين لقول أبي الطيب المتنبي:

بَلَيتُ بِلى الأطلال إن لم أقف بها وقوف شحيح ضاع في الترب خاتمه

فلم يتعاصَ عليَّ». ص١

وقال: «فإن في الإسلام حجةً وحكمة تأخذان ذوي الفطر السليمة، والعقول السامية إلى أن يتصلوا به، ويرضوه، ولو نسلت عليهم الخطوب من كل حدب». ص١٤١

وقال: «يسهل على المؤلف أن يضع إصبعه في سيرة يزيد بن معاوية، أو حماد الراوية؛ لأنه يجد في التاريخ الصحيح، أو الباطل ما يَعبُر به إلى الحديث عنهما بغلو أو إغراق، ثم لا يعدم أذناً تصغي إليه، أو قلباً يتلهى به.

أما عمر بن الخطاب فإن سيرته متجلية تحت نبراس من التاريخ الصحيح لا يستطيع القلم أن يغير منها لوناً، أو يسومها كيداً، وإن ركب منهج ديكارت[1]، وتناول زاده من حقيبة مرجليوث[2]». ص١٥٦

وقال: «ومن لا يدري ما الإيمان ولا الإخلاص قد يجيء على باله أن يشتري سكوت المؤمنين المخلصين بكلمة مديح أو إطراء». ص٢٤٧

---

١ ـ هو الفيلسوف الفرنسي والعالم الرياضي رينيه ديكاردت ١٥٥٦ـ١٦٥٠ الذي ابتكر الهندسة التحليلية، ثم حاول تطبيق منهجه الرياضي على الفلسفة، وأقام فلسفته على الشك المنهجي، وقد تأثر به طه حسين.

٢ ـ مرجليوث: إنجليزي متعصب، ومن محرري (دائرة المعارف الإسلامية) كان عضواً في المجمع اللغوي في مصر، والمجمع العلمي في دمشق، وهو من أوائل من شكك في الشعر الجاهلي، وتأثر به طه حسين.

وإليك فقراً مما قاله العلامة الشيخ محمد الطاهر بن عاشور في كتابه: (أليس الصبح بقريب) قال رحمه الله: «قد كان حدا بي حادي الآمال، وأملَى عليّ ضميري، من عام واحد وعشرين وثلاثمائة وألف، للتفكر في طرق إصلاح تعليمنا العربي الإسلامي الذي أشعرتني مدة مزاولته متعلّماً ومعلّماً بوافر حاجته إلى الإصلاح الواسع النطاق؛ فعقدت عزمي على تحرير كتاب في الدعوة إلى ذلك وبيان أسبابه، ولم أنشَبْ أن أزجيت بقلمي في ابتداء التحرير فإذا هو يسابقني كأنه من مطايا أبي العلاء القائل:

ولو أن المطي لها عقول وجَدِّكَ لم نَشُدَّ لها رحالا

وقال: «وصادفتُ أيام عطلة التدريس الصيفية في ذلك العام، فقضيتُ هواجِرَها الطويلة، وبُكَرها الجميلة، في هذا العمل، مشتغلاً به عن محادثة الأحباب، وعن دَعة التنعم بمغتَسَلٍ بارد وشراب، حتى وقف بي القلم عند انتهاء الاستراحة في مدة شهرين إلى تحرير جملة كانت مشجّعتي على مراجعة عملي هذا في ثلاثة أصياف وعنونته «أليس الصبح بقريب».

وقال في مقالٍ له عنوانه: «أثر الدعوة المحمدية في الحرية والمساواة»: «لا تجد لفظاً تهواه النفوس، وتهش لسماعه، وتستزيد من الحديث فيه - مع أن معظمهم لا يضبط مقدار المراد منه - مثلَ لفظِ الحرية.

وما سبب ذلك التعلق العام إلا أن معظم من يسمعون هذا

اللفظ ، أو ينطقون به يحملونه على محامل يخف محملها في نفوسهم.

فالوقح يحسب الوقاحة حرية، فيخف عنده ما ينكره الناس من وقاحته، والجريء الفاتك ينمي صنيعه إليها ، فيجد من ذلك مبرراً لجرأته، ومحب الثورة يعد الحرية مسوغاً لدعوته، والمَفْتون في اعتقاده يدافع الناقمين عليه بأنه حر العقيدة إلى غير هؤلاء.

فيا لله لهذا المعنى الحسن ماذا لقي من المحن ، وماذا عُدِل به عن خير سنن؟ »[1].

وقال: «لا تتحقق حرية تامة في نظام البشر؛ لأن تمام الحرية هو الانخلاع عن جميع القيود ، وعن كل مراعاة للغير بأن يعيش المرء عيشة الوحوش ، وذلك غير مستطاع إلا فيما تخيَّله الشنفرى إذ يقول :

ولي دونكم أهلون سِيْدٌ عَمَلَّسٌ وأرقطُ زهلولٌ وعرفاءُ جَيْأَل[2]

هم الأهلُ لا مستودعُ السرِّ ذائعٌ لديهم ولا الجانيْ بما دان يُعْزَلُ

وقال في تفسيره التحرير والتنوير ١/٢٧٤ : «فلا ينبغي لمنتسب أن يجازف بقولة سخيفة ناشئة عن قلة تأمُّل ، وإحاطةٍ بموارد الشريعة ،

---

١ ـ هذا اقتباس من الشاهد النحوي :

رب وفقني فلا أعدلَ عن سَنن الساعين في خير سنن

٢ ـ السِّيْد : الذئب ، والعَمَلَّس : السريع السير ، والأرقط : النمر؛ لأن فيه نقطاً بيضاً وسوداً ، والزهلول : الأملس ، والعرفاء : الضبع؛ لأن لها عرفاً من الشعر ، والجيأل : اسم للضبع.

وإغضاءٍ عن غرضها، ويؤول إلى تكفير جمهور المسلمين، وانتقاض الجامعة الإسلامية، بل إنما ينظر في الشريعة نظرة مُحيطة؛ حتى لا يكون ممن غابت عنه أشياء، وحضره شيء[١]، بل يكون حكمه في المسألة كحكم فتاة الحي[٢]».

---

١ ـ هذا تضمين لبيت أبي نواس:

فقل لمن يدعي في العلم فلسفة: حفظت شيئاً وغابت عنك أشياء

٢ ـ هذا تضمين لبيت النابغة:

احكم كحكم فتاة الحي إذ نظرت إلى حَمَام شِراع وارد الثَّمَد

يَحُفُّه جانباً نيّق وتتبعه مثل الزجاجة لم تكحل من الرمد

قالت: ألا ليتما هذا الحمام لنا إلى حمامتنا ونِصفُه فقد

فحسَّبوه فألفوه كما حسبت تسعاً وتسعين لم تنقص ولم تزدِ

قوله: (فتاة الحي): هي زرقاء اليمامة، وكان يضرب بها المثل في حدة البصر.

وقوله: (شِراع): مجتمعة، (والثمد): الماء القليل يكون في الشتاء، ويقل في الصيف.

وقوله: (يحفه): يحيط به، (والنيق): الجبل، وقوله: (قد): أي حسب، والحسبة: الحساب.

والمعنى أنها أسرعت في أخذ حساب الطير في تلك الناحية.

ومعنى البيت: أصِبْ في أمري، ولا تخطئ فيه كما أصابت الزرقاء في عدد الحمام ولم تخطئ.

والقصة ـ كما زعموا ـ أن زرقاء اليمامة ـ وهي من بقايا طسم وجديس ـ كان لها قطاة؛ فمر بها سرب من القطا بين جبلين، فقالت:

ليت الحمام ليه إلى حمامتيه

أو نصفه قَدِيَه تم الحمام ميه

فهذه قصة فتاة الحي، ومقصود ابن عاشور رحمه الله من هذا السياق أنه أراد أن يقول: انظر إلى الشريعة نظرة شاملة؛ حتى إذا حكمت في أي مسألة، كان حكمك مصيباً =

وقال رحمه الله في التحرير والتنوير ١/٢٧٤ بعد أن قرر مسألة العفو عن العصاة: «ولا عجب أعجب من مرور الأزمان على مثل قول الخوارج والإباضية والمعتزلة، ولا ينبري من حذاق علمائهم من يهذب المراد، أو يؤول قول قُدَمائه ذلك التأويل المعتاد، وكأني بوميض فِطْنَةِ نُبهائهم أخذ يلوح من خِلل الرماد[1]».

وهذه فقرة من مقالة للشيخ العلامة محمد البشير الإبراهيمي عنوانها: «من نفحات الشرق الأستاذ الشيخ محمد بهجة البيطار» وقد تحدث في هذه المقالة عن الشيخ البيطار، ومما قاله رحمه الله: «والأستاذ البيطار مجموعة فضائل، ما شئت أن تراه في عالم مسلم من خُلُق فاضل إلا رأيته فيه، مجاوز للحدود المذهبية والإقليمية، يزن هذه المذاهب الشائعة بآثارها في الأمة، لا بأقدار الأئمة، ويعطي كُلَاًّ ما يستحق، جريء على قولة الحق في العلميات، ولكن الجرأة منه يلطفها الوقار، والوقار فيه تُزَيِّنه الجرأة، فيأتي من ذلك مزاجٌ خُلقي لطيف، متساوي الأجزاء، مزدحم الخلايا، قلَّ أن تجده في

= جازماً كحكم فتاة الحي.

وهكذا وظف تلك القصة لخدمة غرضه.

١ ـ هذا تضمين لبيت من أبيات لنصر بن سيار يقول مطلعها:

أرى خلل الرماد وميض جَمْرٍ ... ويوشك أن يكون لها ضرام

أحد من علمائنا المعدودين».

وقال متحدثاً عن ذكرياته في دمشق واجتماعه مع أصحابه العلماء: «ثم تعاقبت الاجتماعات وانتظمت، واتّسقت أسباب اللقاء، واتسعت آفاق البحث في الأسمار، وكثُر الصحب، وما منهم إلا السابق الْمُغَبِّر، والكاتب الْمُحَبِّر؛ واللِّسِن المعبّر، فكنّا لا نفترق من اجتماع إلا على موعد لاجتماع، وكان واسطة العقد في تلك المجالس الأستاذ الجليل والأخ الوفي الشيخ الأستاذ محمد الخضر حسين ـ مد الله في حياته ـ.

ولقد أقمت بين أولئك الصحب الكرام أربع سنين إلا قليلاً، فَأَشْهدُ صادقاً أنها هي الواحة الخضراء في حياتي المجدبة، وأنها هي الجزء العامر، في عمري الغامر، وأنني كنت فيها أقرّ عيناً وأسعد حالاً من ذلك الذي نزل على آل المهلب شاتياً، فوجد الإدبار رائحاً والإقبال آتياً». [1]

إلى أن قال: «ويا رعى الله عهد دمشق الفيحاء وجادتها الهوامع[2]

١ـ يشير إلى قول أبي الهندي:

نزلت على آل المهلب شاتياً ... غريباً عن الأوطان في بلد مَحْلِ
فما زال بي إكرامهم وافتقادهم ... وبرُّهم حتى حسبتهم أهلي

قال ابن عبدالبر رحمه الله في بهجة المجالس ١ / ٢٩٤: «تذاكر أهل البصرة من ذوي الأدب والأحساب في أحسن ما قاله المولدون في حسن الجوار من غير تعسُّف ولا تعجرف، فأجمعوا على بيتي أبي الهندي».

٢ـ الهوامع: السحب المطرة.

وسقت، وأفرغت فيها ما وسقت.[١]

وخصّت بالمثقلات الدوالح[٢] مجامع الأحباب، وأندية الأصحاب، من الصالحية والجسر والنَّيربين[٣]: المزة والربوة.

فكم كانت لنا فيها من مجالس، نتناقل فيها الأدب، ونتجاذب أطراف الأحاديث العلمية، على **ودٍّ أصفى من بَرَدى تُصَفِّق بالرحيق السلسل**[٤]، ووفاء أثبت من أواسي قاسيون، وأرسى من ثهلان ذي الهضبات.

لا توبَن في مجالسنا حرمة، ولا يُكلم عرض، ولا يقارف مأثم.

وإنما هو الأدب بلا جدب، نهصر أفنانه؛ والعلم بلا ظلم، نطلق عنانه، والفن بلا ضن نروّق دنانه، والنادرة بلا بادرة نتلقفها، والنكتة بلا سكتة نتخطفها.

١ـ ما وسقت: أي ما جمعت من ماء.

٢ـ الدوالح: جمع دلوح ودلوحة، وهي السحابة المثقلة بالماء.

٣ـ النَّيربان: هما جانبا دمشق الشمالي والجنوبي حول نهر بردى.

٤ـ قوله: «على ود أصفى من بردى تصفق بالرحيق السلسل»: هذا تضمين لبيت حسان بن ثابت ﷺ وهو ضمن قصيدته التي تسمى البتارة، التي مدح بها آل جفنة من الغساسنة، والتي مطلعها:

أسألت رسم الدار أم لم تسألِ ... بين الجوابي فالبضيع فَحوقلِ

الى ان يقول:

يَسقُون مَنْ وَرَدَ البريص عليهم ... بردى يصفِّق بالرحيق السلسل

ويا تربة الدحداح، بوركت من تربة. لا يذوق فيها الغريب مرارة الغربة، ولا زلت مسقطاً لرحمات الله.

إنني أودعت ثراك أعزّ الناس عليّ: أبي وابني وجَدَّي أولادي؛ فاحفظي الودائع إلى يوم تُجزى الصنائع.

ويا جناتِ الغوطة، وقراها المغبوطة، لا زلت مجلى الفطر، والحد الفاصل بين البدو والحضر، أشهد ما عشوتِ من الغرب إلى نار[1]، ولا عشيت منه بنور.

تبارك من رَوَّاك بسبعة أودية، وكساك من وشي آذار بخضر الأردية.

كم فُتِنْتُ بمناظرك الشعرية، وأخذت بمجاليك السحرية، وكم تزوّدتْ عيناي فيك بروضة وغدير، وكم تمتعت أذناي من جداولك وأشجارك بحفيف وهدير».

إلى أن قال: «عهود لم يبق إلا ذكراها في النفس، وصداها في الجوانح، والحنينُ إليها في مجامع الأهواء من الفؤاد.

ولولا أن السلوّ كالزمن يتقادم، وأن الهوى مع العقل يتصادم، لقلت مع المتنبي: أبوكم آدم!...»[2]

---

١ ـ هذا تضمين لقول الشاعر:

متى تأته تعشو إلى ضوء ناره ... تجد خير نار عندها خير مُوقِدِ

٢ـ يشير إلى قول المتنبي في قصيدة شِعب بَوَّان:

يقول بشعب بَوَّانٍ حصاني ... أعن هذا يُسار إلى الطعان

أبوكم آدم سن المعاصي ... وعلمكم مفارقة الجنان

فلو تأملت الفِقَر الماضية لرأيت أمثلةً على توظيف الثقافة، والمعارف للموضوع.

٢٠- العلم بموطن الشاهد، وإيراد النقول في مواطنها المناسبة

فيحسن بالكاتب إذا اختار موضوعاً في أي شأن من الشؤون ـ أن يجمع كل ما يخدم موضوعه، ثم ينتقي من ذلك ما يناسب المقام، ويلائم الأسلوب.

كما عليه أن يعرف موطن الشاهد، والمنزع ـ فلا يورد كلاماً في غير موضعه، ولا يستشهد بكلام في غير محله.

فإذا أخطأ السبيل في ذلك عرَّض نفسه للسخرية، كحال من يستشهد ببيت شعر وهو لا يعرف معناه، فيضعه في مكان مغاير لما أراد.

وذلك كحال أحدهم لَّما كتب كلمة رثاء في أحد العلماء؛ حيث أفاض في مدحه، والثناء عليه، وأكثر من قول: «وكان رحمه الله» حتى قال: وكان رحمه الله:

يمارس نفساً بين جنبيه كزَّة ... إذا همَّ بالمعروف قالت له: مهلاً

فعرض على صاحبٍ له مقالته، فقال الصاحب: أتدري ما معنى البيت؟

فقال الكاتب: نعم، إنه بيت جميل، يتضمَّن مدحاً، وثناءً يناسب مقام ذلك العالم الجليل.

فقال له صاحبه: إن معنى البيت يتضمَّن هجاءً مراً مقذعاً يكاد يكون من أعظم الهجاء؛ حيث وُصف المهجو بالبخل الشديد، والكزازة، وَوُصِفَتْ نفسه بأنها لا تطاوعه على المكارم.

فقال الكاتب ـوكان في نيَّته إرسال المقال إلى جريدة سيَّارةـ: خرِّق، خرِّق!

وكحال أحد الطلاب في الجامعة، حيث أرسل رسالة إلى أستاذ يُجلُّه ويحبه، فأراد هذا الطالب أن يُعبِّر عن تلك المشاعر المكنونة، وأن يصف أستاذه بصفات تليق بمقامه العالي عنده، فأرسل رسالة عبر الجوَّال يقول فيها:

وصَفْتَ التقى حتى كأنك ذو تقى وريح المعاصي من ثيابك تنضح

فلما قرأها الأستاذ قال: صحيح إن ذنوبي كثيرة، ولو فاحت رائحتها لما جالسني أحد.

ثم اتَّصل على هذا المرسل وهو لا يعرفه، فلما تكلَّم كأنه عرفه، فقال له: ما هذا البيت؟ فقال الطالب: والله يا شيخ إنني أحبُّك في الله، وبين يدي أحد مؤلفاتك، وقد أفدت منه فائدة كبيرة، وخطر في بالي ذلك البيت، فأرسلته لك معبِّراً عن إعجابي وحُبِّي.

فقال له الأستاذ: أتدري معنى البيت؟

فقال الطالب: لا شك أنه معنى جميل.

فقال الأستاذ: إن معناه كذا وكذا، فتلعثم الطالب، وقال: والله إنني لا أعلم أن معناه هكذا، فلعلك لم تعرفني أيها الأستاذ.

فقال الأستاذ: لا عليك؛ الأمر أهون من ذلك، ولكن عليك بالتثبُّت، ومعرفة ما تكتب.

وربما قال بعضهم لزوجته مثنياً عليها:

أثني عليَّ بما علمتِ فإنني مثنٍ عليك بمثل ريح الجورب

وما علم أن ذلك منتهى الإقذاع والسب، والسخرية.

وكل ذلك ناتج عن سوء الفهم، ووضع الكلام في غير مواضعه.

وإن كلام المرء في غير كنهه لكالنبل تهوي ليس فيها نصالها

وبالجملة فالعلم بمواطن الشاهد، ووضع الشاهد في مكانه الملائم له ـ من الأهمية بمكان خصوصاً ما كان من ذلك شعراً؛ لأن الخطأ يقع فيه كثيراً ـ كما مر ـ.

وإن مما يعين على ذلك أن ينظر الذي يريد الارتقاء بكتابته في أساليب أكابر الكتاب الذي يُحْكِمون هذا الأمر.

كذلك يحسن به أن ينظر في سير الذين يوردون الشواهد مواردها في أحاديثهم والمواقف التي تمر بهم.

وهذه المادة مبثوثة في غضون كثير من كتب السير، والأدب، ونحوها ككتاب الشعر والشعراء، وكتاب المعاني الكبير وهما لابن قتيبة، وكتاب بهجة المجالس لابن عبدالبر، وكتاب الصناعتين وديوان المعاني وهما لأبي هلال العسكري، وغيرها من الكتب.

غير أن وجود تلك المادة ـ أعني حسن الاستشهاد ـ في مؤلف

واحدٍ جامعٍ نادرٌ قليلٌ.

ولا أعرف أحداً من أهل العلم أفرده بمؤلف خاص إلا الإمام أحمد بن فارس اللغوي رحمه الله في كتابه (أبيات الاستشهاد)[١].

وهو كتاب صغير في حجمه، كبير في مضمونه، فريد في بابه، نادر في موضوعه.

وهو يدور حول الاستشهاد بالشعر، وذلك بذكر الأبيات التي تصلح للتمثل بها في مقامات مختلفة، أو هو الأمثال الشعرية مع ذكر مضاربها؛ بحيث إذا عرض للإنسان عارض، أو مر به موقف من المواقف استشهد عليه بشيء من الشعر الذي يناسب ذلك المقام.

فاطلاع الكاتب على مثل ذلك الطرازِ من التأليف هو مما يقوي عارضته، ويثبت حجته، ويعينه على حسن الاستشهاد، وإيقاع الكلام في أحسن مواقعه.

٢١- الاهتمام بحسن الافتتاح، وجودة المطلع، وبراعة الاستهلال

فذلك دليلٌ على جودة البيان، وسلامة الذوق، كما أنه سبيل بلوغ المعاني إلى الأذهان؛ فلذلك ينبغي أن يكون حسناً مقبولاً، دالاً على الغرض ولو من طرفٍ خفي؛ فالفكرة الأولى عن شيء، أو أمر، أو شخص تَثْبُت وتَقِرُّ في النفس.

---

١ ـ ولقد يسر الله لي العناية بذلك الكتاب، فجاء في مجلد عنوانه (كتاب أبيات الاستشهاد للعلامة ابن فارس اللغوي) دراسة وشرح، ثم ذيَّلته بكتاب على منواله اسمه (التمثل بالشعر ـ ذيل أبيات الاستشهاد ـ).

ومحوها يحتاج إلى عناء؛ فإن كانت حَسَنةً صَعُب تهجينها، وإن كانت سيئة عَزَّ تزيينها.

ولهذا عني علماء البلاغة في مبادئ الكلام، وعقدوا له الفصول في كتبهم، ونبهوا على ما ينبغي للكاتب، والشاعر في هذا الشأن قال أبو هلال العسكري رحمه الله: «إذا كان الابتداء حسناً بديعاً ومليحاً ورشيقاً كان داعيةَ الاستماعِ لما يجيء بعده من الكلام.

ولهذا المعنى يقول الله -عز وجل-: ﴿الم﴾، ﴿حم﴾، ﴿طس﴾، ﴿كهيعص﴾

فيقرعٍ أسماعهم بشيء بديع ليس لهم بمثله عهد؛ ليكون ذلك داعيةً لهم إلى الاستماع لما بعده، والله أعلم بكتابه.

ولهذا جعل أكثر الابتداءات بـ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ لأن النفوس تتشوق للثناء على الله؛ فهو داعيةُ الاستماع»[١].

وقال رحمه الله: «قال بعض الكتاب: أحسنوا معاشر الكتاب الابتداءات؛ فإنهن دلائل البيان.

وقالوا: ينبغي للشاعر أن يحترز في أشعاره، ومفتتح أقواله مما يُتطير منه، ويُستجفى من الكلام والمخاطبة، والبكاء، ووصف إقفار الديار، وتشتيت الألاف، ونعي الشباب، وذم الزمان لا سيما في القصائد التي تتضمن المدائح والتهاني، ويستعمل ذلك في

١ ـ كتاب الصناعتين ص ٤٣٧.

المراثي، ووصف الخطوب الحادثة؛ فإن الكلام إذا كان مؤسساً على هذا المثال تَطَيَّر منه سامعه، وإن كان يعلم أن الشاعر إنما يخاطب نفسه دون الممدوح». [١]

ثم ضرب رحمه الله أمثلة على ذلك، منها قوله: «أنشد البحتري أبا سعيد قصيدة أولها:

لك الويل من ليلٍ تطاول آخره ... ووشْكُ نوى حيٍّ تزمُّ أباعره

فقال أبو سعيد: بل الويل والحرب لك، فَغَيَّره، وجعله: «له الويل» وهو رديء -أيضاً-.

وأنشد أبو مقاتلٍ الداعيَ:

لا تقل بُشرى ولكن بُشْريانْ ... غرةُ الداعي ويومُ المهرجان

فأوجعه الداعي ضرباً، ثم قال: هَلاَّ قلت:

إن تقل بشرى فعندي بشريان». [٢]

---

١ - كتاب الصناعتين ص ٤٣١.

٢ - كتاب الصناعتين ص٤٣٢، وذكر صاحب معاهد التنصيص عبد الرحيم العباسي ٤-٢٢٩: «أن ابن مقاتل الضرير -أحَدَ شعراء الجبال- أنشد للداعي إلى الحق العلوي الثائر بطبرستان قوله:

موعدُ أحبابك بالفرقة غدْ

فقال له الداعي: بل موعد أحبابك، ولك المثل السوء.

الشاهد فيه: قبح الابتداء.

وروي -أيضاً- أنه دخل عليه في يوم مهرجان، وأنشده:

لاتقل بشرى ولكن بشريان ... غرة الداعي ويوم المهرجان

=

قال العباسي: «من الابتداءات القبيحة قول جرير يمدح عبدالملك بن مروان:

أتصحو أم فؤادك غير صاحِ ....

فإنه لما أنشده قال له عبد الملك: بل فؤادك يابن الفاعلة.

ومثله قول ذي الرمة لما دخل على عبد الملك، وأنشده قصيدته التي أولها:

ما بال عَيْنِكَ منها الماء ينسكب

وكانت عين عبد الملك تدمع دائماً، فتوهم أنه خاطبه، وعَرَّض به، فقال: ما سؤالك عن هذا يا بن الفاعلة، ومقته، وأمر بإخراجه»[(١)].

وقال العباسي: «ومنه قصة إسحاق بن إبراهيم الموصلي مع المعتصم؛ فإنه دخل عليه وقد فرغ من بناء قصره بالميدان؛ فشرع في إنشاد قصيدة أولها:

يا دار غيَّرك البلى ومحاك ... يا ليت شعري ما الذي أبلاك

فتطير المعتصم[(٢)] من قبح هذا الابتداء، وأمر بهدم القصر على

= فتطير منه الداعي، وقال: أعمى يبتدئ بهذا يوم المهرجان، ثم أمر ببطحه، وضربه خمسين عصا، وقال: إصلاح أدبه أبلغ في ثوابه».

١ ـ معاهد التنصيص على شواهد التلخيص لعبد الرحيم العباسي ٤ـ٢٢٩ـ٢٣٠.

٢ ـ التطير مما جاء الإسلام بإبطاله ونفيه، وتحريمه، وبيان ضرره.

والأدلة على ذلك كثيرة جداً منها ما جاء في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «لا عدوى ولا طيرة، وأحب الفأل الصالح» البخاري (٥٧٥٤) ومسلم (٢٢٢٣).

الفور، وهذا مع يقظة إسحاق وشهرته بحسن المحاضرة، وطول خدمته للخلفاء.

ولكن قد يخبو الزناد، ويكبو الجواد مع أنه قيل: أحسن ابتداء ابتدأ به مُوَلَّد قول إسحاق الموصلي:

هــل إلى أن تنــام عينــي ســبيل   إن عهــدي بــالنوم عهــد طويــل[1]

وقد ذكر أبو هلال رحمه الله أمثلة لابتداءات جياد، ومن ذلك قوله: «ومن أحكم ابتداءات العرب قول السموأل:

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عِرْضَـه   فكـــل رداء يرتديـــه جميـــل

وإن هو لم يحمل على النفس ضيمها   فلـيس إلى حـسن الثنـاء سـبيل[2]

وقال بعضهم: أحكم ابتداءاتهم قول لبيد رضي الله عنه:

ألا كـل شيء مـا خـلا الله باطـل   وكـــل نعـــيم لا محالـــة زائـــل

وبعضهم يجعل ابتداءات هذه القصيدة:

ألا تـسألان المـرء مـاذا يحـاول   أَنَحْبٌ فَيُقضى أم ضـلالٌ وباطـل[3]

---

١ ـ معاهد التنصيص ٤ـ ٢٣٠ـ٢٣١

٢ ـ كتاب الصناعتين ص٤٣٣.

٣ ـ كتاب الصناعتين ص٤٣٤.

٢٢- العناية بحسن الختام

فالخاتمة هي آخر ما يكتب، ولها أثرها الباقي؛ إذ هي آخر ما يعلق في النفس، وأكثر ما يبقى في الذهن، ويتصل بالقلب؛ فإن كان وقعها حسناً انسحب ذلك عن جميع ما مضى، وإلا ساء الأثر، وضاعت الغاية المنشودة؛ فيتعين على الكاتب أن يجتهد في حسن الختام، وأن يجعله رشيقاً، حلواً، مشتملاً على جمال اللفظ، وإصابة الغرض، متضمناً إيجازاً لما مضى بأخصر عبارة، وألطف إشارة.

وكل خاتمة بحسبها، فخاتمة المقالة تختلف عن خاتمة الكتاب، كما أن خواتم الكتب تختلف باختلاف كبرها وصغرها، وهكذا..

٢٣-اختيار الورق الجيد، والقلم المناسب

وهذا مجرب فإذا كتبت بالقلم الذي تحبه، وكانت الأوراق مسطرة مريحة للنفس كان ذلك دافعاً للاسترسال في الكتابة.

ولهذا قيل لورَّاق: «ما السرور؟ قال: جلود وأوراق، وحبر برَّاق، وقلم مَشَّاق». (١)

ولا يلزم ذلك بكل حال؛ فقد لا يتسنى في كل وقت.

---

١ - يرجع للهمة.

٢٤- العلم بما يكتب

فلا يخوض الكاتب في موضوع إلا وقد أحاط به علماً، ودراسة؛ فلا يعني علمه بفن من الفنون أن يكون عالماً بكل فن؛ فقد يعلم شيئاً، وتغيب عنه أشياء؛ وقد يُفتح عليه في باب ولا يُفتح عليه في غيره وهكذا..

يقول الشيخ العلامة محمود شاكر رحمه الله: «رُبَّ رجلٍ واسعِ العلم، بحرٍ لا يزاحم، وهو على ذلك قصير العقل مضلَّل الغاية، وإنما يَعْرِض له ذلك من قبل جرأته على ما ليس له فيه خبرة، ثم تهوره من غير روية ولا تدبر، ثم إصراره إصرار الكبرياء التي تأبى أن تعقل.

وإنَّ أحدنا لَيُقْدِم على ما يحسن، وعلى الذي يعلم أنه به مضطلع، ثم يرى بعد التدبر أنه أسقط من حسابه أشياء، كان العقل يوجب عليه فيها أن يتثبت، فإذا هو يعود إلى ما أقدم عليه؛ فينقضه نقض الغزل.

ومن آفة العلم في فن من فنونه، أن يحمل صاحبه على أن ينظر إلى رأيه نظرة المعجب المتنزه، ثم لا يلبث أن يفسده طول التمادي في إعجابه بما يحسن من العلم، حتى يقذفه إلى اجتلاب الرؤى فيما لا يحسن، ثم لا تزال تغيره عادة الإعجاب بنفسه حتى ينزل ما لا يحسن منزلة ما يحسن، ثم يصر، ثم يغالي، ثم يعنف، ثم يستكبر،

ثم إذا هو عند الناس قصير الرأي والعقل على فضله وعلمه »[١].

ثم هل يليق بإنسان لا يعلم أبجديات ما يتحدث عنه أن يخوض فيه نقداً، وتحليلاً، وتنظيراً، وتصحيحاً، وتخطئةً؟

ولئن ساغ له أن يتحدث في ذلك مع زملائه حديثاً عابراً، فهل يسوغ له أن يذيعه وينشره على نطاق أوسع؟

وإن أبى إلا الخوض فيما لا يعنيه كان حقيقاً بأن يأتي بالعجائب؛ لأنه تكلم بما لا يعرف.

وخلاصة القول أنه يحسن بالعاقل ألا يخوض في كل مجال، ولا يلزمه أن يكون له رأي في كل مسألة، وإذا كان له رأي فليس ضرورياً أن يبديه، وإذا كان سيبديه، فليس ضرورياً أن يبديه لكل أحد أو أن يفصل فيه.

ويحسن بالعاقل -أيضاً- أن يعرض آراءه على ذوي الحِجا، والنصح، والنظر البعيد؛ حتى لا يقع في بحر الحسرات؛ لأنه ركب العَجَلَةَ وهي أم الندامات.

ويجدر به قبل ذلك وأثناءه، وبعده أن يستخير الله -عز وجل- وأن يسأله التوفيق، والهدى، والتسديد -خصوصاً في الأمور الكبار-.

وإذا اشتبه عليه شيء مما قد اختلف فيه فَلْيَدْعُ بما رواه مسلم في

١ـ مجلة الرسالة عدد ٥٦٢ إبريل ١٩٤٤، وانظر جمهرة مقالات محمود شاكر ٢٥٨/١ إعداد د.عادل سليمان جمال.

صحيحه عن عائشة ـرضي الله عنهاـ أن رسول الله ﷺ كان يقول إذا قام يصلي من الليل: «اللهم رب جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون – اهدني لما اختُلِفَ فيه من الحق بإذنك؛ إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم».(١)

فإن الله ـتعالىـ قد قال فيما رواه عنه رسوله: «يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم».(٢)

فإذا دعى بذلك الدعاء العظيم كان حرياً بأن يوفقه الله، ويزيل عنه حيرته، واضطرابه، وتردده، ويريه الحق حقاً ويرزقه اتباعه، والباطل باطلاً ويرزقه اجتنابه.

فإن أبى إلا الدخول في كل طريق، والتولج في كل مضيق ـ سيكون عُرْضةً لِلّوم، وغرضاً للذم، وربما أتى بما لا لم يأت به الأوائل من العجائب والغرائب، وستنطبق عليه مقولة الحافظ ابن حجر حين قال رحمه الله: «إذا تكلم المرء في غير فنه أتى بهذه العجائب»(٣).

ورحم الله ابن حبان إذ نقل قولاً ساقطاً لأحدهم في مقدمة كتابه: (المجروحين) فقال: «ولو تملّق قائل هذا القول إلى بارئه في

---

١ ـ مسلم (٧٧٠).

٢ ـ رواه مسلم (٢٥٧٧).

٣ ـ فتح الباري لابن حجر العسقلاني ٥٨٤/٣.

الخلوة، وسأله التوفيق لإصابة الحق لكان أولى به من الخوض فيما ليس من صناعته». [١]

٢٥- مراعاة أغراض الكتابة والتأليف

فيحسن بالكاتب ألا يكتب في موضوع ما إلا بعد النظر في الحاجة إليه، ومدى ملاءمته لأغراض الكتابة التي بيَّنها العلماء، وجمعها الناظم بقوله:

ألا فاعلمن أن التآليفَ سبعةٌ لكل لبيبٍ في النصيحة خالصِ
فشرحٌ لإغلاقٍ وتصحيحُ مخطئٍ وإبداعُ حبرٍ مُقْدِمٍ غير ناكصِ
وترتيبُ منثورٍ وجمعُ مُفرقٍ وتقصيرُ تطويلٍ وتتميمُ ناقصِ

٢٦- الحذر من الاستسلام للتثبيط

فكما أن الإنسان يُنصح بألا يستعجل، وبألا يعرض عقله على الناس إلا بعد التروي، واستكمال أدوات الكتابة ـ فكذلك يحسن به ألا يتثبط أو يتوانى إذا كان مهيَّأً للكتابة.

بل عليه أن يُقْدِم، وألا يحتقر نفسه.

وما زال العلماء والحكماء يُحذِّرون من مقولة: «ما ترك الأول للآخر شيئاً» ويوصون بالكلمة الأخرى وهي: «كم ترك الأول للآخر».

وإليك فِقَراً من رسالة كتبها العلاَّمة ابن فارس اللغوي رحمه الله لأبي

---

١ ـ كتاب المجروحين لابن حبان ١/ ١٧.

عمرو ابن سعيد الكاتب، تدور حول هذا المعنى.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «ألهمك الله الرشاد، وأصحبك السداد، وجنَّبك الخلاف، وحبَّب إليك الإنصاف.

وسبب دعائي بهذا لك إنكارُك على أبي الحسن محمد بن علي العِجْلي تأليفَه كتاباً في الحماسة، وإعظامك ذلك.

ولعله لو فعل حتى يصيب الغرض الذي يريده، ويَرِد المنهل الذي يؤمه، لاستدرك من جيِّد الشعر ونَقِيِّه، ومختاره ورضِيِّه كثيراً مما فات المؤلف الأول؛ فماذا الإنكار؟ ولمه هذا الاعتراض؟ ومن ذا حظر على المتأخر مضادةَ المتقدم؟ ولمه تأخذ بقول من قال: ما ترك الأول للآخر شيئاً، وتدع قول الآخر:

كم ترك الأول للآخر؟

وهل الدنيا إلا أزمان، ولكل زمان رجال؟ وهل العلوم بعد الأصول المحفوظة إلا خطرات الأوهام، ونتائج العقول؟!

ومَنْ قصر الآداب على زمانٍ معلوم، ووقفها على وقت محدود؟ ولمه لا ينظر الآخر مثلما نظر الأول حتى يؤلف مثل تأليفه، ويجمع مثل جمعه، ويرى في كل مثل رأيه.

وما تقول للفقهاء زماننا إذا نزلت بهم من نوادر الأحكام نازلة لم تخطر على بال من كان قبلهم؟ أَوَ ما علمت أن لكل قلب خاطراً، ولكل خاطر نتيجةً، ولِمَهْ جاز أن يقال بعد أبي تمام مثل شعره، ولم يَجُزْ أن يؤلف مثل تأليفه؟

ولمه حَجَّرت واسعاً وَحَظَرتَ مباحاً، وحرمت حلالاً، وسددت طريقاً مسلوكاً؟

وهل حبيب[١] إلا واحد من المسلمين له ما لهم وعليه ما عليهم؟ ولمه جاز أن يعارض الفقهاء من مؤلفاتهم، وأهل النحو في مصنفاتهم، والنُّظَّار في موضوعاتهم، وأرباب الصناعات في جميع صناعاتهم، ولم يجز معارضة أبي تمام في كتاب شذَّ عنه في الأبواب التي شرعها فيه أمر لا يُدْرَكُ ولا يدرى قدره؟

ولو اقتصر الناس على كتب القدماء لضاع علم كثير، ولذهب أدب غزير، ولضلّت أفهام ثاقبة ولَكَلَّت أَلْسُنٌ لسِنَةٌ، ولما توشَّى أحد بالخطابة، ولا سلك شِعْباً من شعاب البلاغة، ولَمَجَّتِ الأسماع كل مردود مكرر، وللَفظت القلوب كل مُرَجَّع مُمَضَّغ، وحتَّام لا يُسْأَم:

لو كنت من مازن لم تستبح إبلي[٢]

وإلى متى: صَفَحْنا عن بني ذهل[٣]

ولِمَه أنكرت على العِجْليِّ معروفاً؟ واعترفت لحمزة بن الحسين

---

١ ـ يعني به: أبا تمام: حبيب بن أوس الطائي.

٢ ـ يشير إلى قول القائل: لو كنت .... بنو اللقيطة من ذهل بن شيبانا

٣ ـ يشير إلى قول الفِنْد الزماني:

صفحنا عن بني ذهل وقلنا القوم إخوان

ما أنكره على أبي تمام في زعمه أن في كتابه تكريراً وتصحيفاً، وإيطاءً وإقواءً، ونقلاً لأبيات عن أبوابها إلى أبوابٍ لا تليق بها ولا تصلح لها إلى ما سوى ذلك من روايات مدخولة، وأمور عليلة؟ ولِمَه رضيت لنا بغير الرضى؟ وهلا حثثت على إثارة ما غَيَّبَتْهُ الدهور، وتجديد ما أخلقته الأيام، وتدوين ما نَتَجَتْهُ خواطرُ هذا الدهر، وأفكار هذا العصر، على أن ذلك لو رامه رائمٌ لأتعبه، ولو فعله لقرأت ما لم ينحط عن درجة مَنْ قَبْلَه: مِنْ جدٍّ يروعك، وهزل يروقك، واستنباط يعجبك، ومزاحٍ يلهيك.

وكان بقزوين رجل معروف بأبي حامد الضرير القزويني، حضر طعاماً وإلى جنبه رجل أَكُوْلٌ، فأحس أبو حامد بجودة أكله فقال:

وصاحب لي بطنه كالهاويه كأن في أمعائه معاويه[1]

فانظر إلى وجازة هذا اللفظ، وجودة وقوع الأمعاء إلى جنب معاوية، وهل ضر ذلك أن لم يقله حماد عَجْرَد وأبو الشمقمق؟ وهل في إثبات ذلك عار على مثبته، وفي تدوينه وصمة على مدوِّنه؟

١ـ المعاوية: الكلبة التي تعاوي الكلاب وتنابحها، وبها سمي الرجل. وربما أراد بذلك الخليفة معاويةَ بن أبي سفيان رضي الله عنه فقد كان رجلاً أكولاً وقد قال فيه النبي ﷺ «لا أشبع الله بطنك» رواه مسلم (٢٦٠٤).

وهذا الدعاء ـ في الحقيقة ـ دعاء لمعاوية رضي الله عنه لأن النبي ﷺ قال: «اللهم إنما أنا بشرٌ، فأيما رجلٍ من المسلمين سببته، أو لعنته، أو جلدته - اجعلها له زكاة ورحمة» رواه مسلم (٢٦٠١).

وبقزوين رجل يعرف بابن الرياشي القزويني، نظر إلى حاكم من حكامها من أهل طبرستان مقبلاً، عليه عمامةٌ سوداءُ وطيلسان أزرقُ، وقميصٌ شديدُ البياض، وخفٌّ أحمرُ، وهو مع ذلك كله قصير على بِرذون أبلقَ هزيلِ الخَلْق، طويل الحلق، فقال حين نظر إليه:

وحاكم جاء على أبلق ... كعقعقٍ جاء على لقلقِ

فلو شهدت هذا الحاكم على فرسه لشهدت للشاعر بصحة التشبيه، وجودة التمثيل، ولعلمت أنه لم يَقْصُرْ عن قول بشار:

كأن مُثَار النقع فوق رؤوسهم ... وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

فما تقول لهذا، وهل يحسن ظلمه في إنكار إحسانه، وجحود تجويده؟

وأنشدني الأستاذ أبو علي محمد بن أحمد بن الفضل، لرجل بشيراز يعرف بالهمذاني وهو اليوم حي يرزق، وقد عاتب[1] بعض كتابها على حضوره طعاماً مرض منه:

وُقِيتَ الردى وصروفَ العلل ... ولا عَرَفَتْ قدماك العلل

شكا المرض المجد لَمَّا مَرِضْـ ... ـتَ فلما نهضت سليماً أبلّ

لك الذنب لا عتب إلا عليك ... لماذا أكلت طعام السِّفل

---

١ ـ في الأصل: «عاب».

وأنشدني له في شاعر هو اليوم هناك يعرف بابن عمرو الأسدي، وقد رأيته فرأيت صفة وافقت الموصوف:

وأصفر اللون أزرق الحدقهْ في كل ما يدعيه غير ثقهْ

كأنه مالك الحزين إذا همَّ بزرق وقد لوى عنقهْ

إن قمت في هجوه بقافيةٍ فكل شعر أقوله صدقهْ

وأنشدني عبدالله بن شاذان القاري، ليوسف بن حمويه من أهل قزوين؛ ويعرف بابن المنادى:

إذا ما جئت أحمد مُستميحاً فلا يَغْرُرْكَ منظرُه الأنيقُ

له لطفٌ وليس لديه عرفٌ كبارقة تروقُ ولا تُريق

فما يخشى العدوُّ له وعيداً كما بالوعد لا يثق الصديق

ومدح رجلٌ بعض أمراء البصرة، ثم قال بعد ذلك وقد رأى توانياً في أمره قصيدةً يقول فيها كأنه يجيب سائلاً:

جوَّدت شعرَك في الأميـ ـرِ فكيفَ أمْرُك قلتُ فاترْ

فيكفَ تقول لهذا؟ ومن أي وجه تأتي فتظلمه؟ وبأي شيء تعانده فتدفعه عن الإيجاز؟ والدلالة على المراد بأقصر لفظٍ وأوجز كلام، وأنت الذي أنشدتني:

سَدَّ الطريق على الزما نِ وقام في وجه القطوب

كما أنشدتني لبعض شُعراء الموصل:

فدَيتك ما شبت عن كُبرةٍ وهذي سِنيٍّ وهذا الحسابُ

ولكــن هُجِــرتُ فحَــلَّ المــشيبُ ولــو قــد وُصِــلتُ لعــاد الــشبابُ

فلِمَ لم تخاصم هذين الرجلين في مزاحمتهما فحولة الشعراء وشياطين الإنس، ومَرَدة العالمِ في الشعر؟

وأنشدني أبو عبدالله المغلسي المراغي لنفسه:

غــداةَ تولــت عِيــسُهم فترحلــوا بكيــت عــلى ترحــالهم فعميــتُ
فــلا مُقلتِــي أدّت حقــوقَ وِدادهــم ولا أنــا عــن عينــي بــذاك رضيــتُ

وسمعت أبا الحسين السروجي يقول: كان عندنا طبيب يُسَمَّى النعمان، ويكنى أبا المنذر، فقال فيه صديقٌ لي:

أقــول لــنعمانٍ وقــد ســاق طبُّــه نفوســاً نفيــساتٍ إلى بــاطن الأرضِ
أبــا منــذر أفنيــتَ فاســتبقِ بعــضَنا حنانيك بعضُ الشرِّ أهون من بعضِ[1]

إلى آخر ما قاله في رسالته الماتعة[2].

٢٧- مراعاة أدب النفس

وذلك بالتحلي بكل خلق جميل، والتخلي عن كل خلق رذيل.
وقد مر شيء من ذلك فيما مضى.

قال ابن قتيبة رحمه الله: «ونحن نستحب لمن قبل منا، وائتم بكتبنا أن

---

١ ـ البيت لطرفة في ديوانه ٤٨.

٢ ـ انظر يتيمة الدهر للثعالبي ٢/٢١٤ـ٤١٨، مقدمة المقاييس ١ / ١٥ـ ٢٠.

يؤدب نفسه قبل أن يؤدب لسانه، ويهذب أخلاقه قبل أن يهذب ألفاظه، ويصون مروءته عن دنايا الغيبة، وصناعته من شين الكذب، ويجانب ـ قبل مجانبته اللحن، وخطل القول ـ شنيع الكلام، ورفث المزاح».[١]

وقال رَحِمَهُ اللهُ ـبعد أن ساق جملة من آداب الكاتب، وما ينبغي أن يتحلى به، ويستكمله من أدواتـ: «فمن تكاملت فيه هذه الأدوات، وأمده الله بأدب النفس من العفاف، والحلم، والصبر، والتواضع، وسكون الطائر، وخفض الجناح ـ فذلك المتناهي في الفضل، العالي في ذرا المجد، الحاوي قصب السبق، الفائز بخيري الدارين ـ إن شاء الله تعالى ـ»[٢].

فإذا اتصف الكاتب بأدب النفس حمله ذلك على سمو العبارة، وطهارة المنطق، وقاده إلى الإنصاف والعدل، وتحري الحقيقة والأمانة في النقل، إلى غير ذلك مما يكسبه شكوراً، وتزداد به صحيفة أعماله نوراً.

٢٨- تخمير الكتابة

وذلك بألا يستعجل بإخراج ما يكتب؛ إذ يحسن به أن يكتب، ويدع ما كتب مدة، ثم يرجع إليه، ويعيد النظر فيه مرة بعد مرة، ويتعاهده بالتشذيب، والتهذيب، والإصلاح، وقد قيل: «خمير

---

١ ـ أدب الكاتب لابن قتيبة ص١٤.

٢ ـ أدب الكاتب لابن قتيبة ص٢٠.

الرأي خير من فطيره»[١].

قال بعض رؤساء الكتاب: «ليس أحد أولى بالأناة والروية من كاتب يعرض عقله، وينشر بلاغته؛ فينبغي له أن يعمل النسخ، ويقبل عفو القريحة، ولا يستكرهها، ويعمل على أنَّ جميع الناس أعداءٌ له، عارفون بكتابه، منتقدون عليه، متفرغون إليه»[٢].

وقال آخر: «إن لابتداء الكلام فتنةً تروق، وجدةً تُعجب؛ فإذا سكنت القريحة، وعدل التأمل، وصفت النفس ـ فليعد النظر، وليكن فرحه بإحسانه مساوياً لغمه بإساءته»[٣].

وقالوا: «الكتاب يُتصفح أكثر مما يُتصفح الخطاب؛ لأن الكاتب متخير، والمخاطب مضطر.

ومن يَرِدْ عليه كتابك فليس يعلم أأسرعت فيه أم أبطأت.

وإنما ينظر أأخطأت أم أصبت؛ فإبطاؤك غير قادح بإصابتك، كما أن إسراعك غير مُغطٍّ على غلطتك»[٤].

وقيل لبشَّار بن برد: «بِمَ فُقْتَ أهل عمرك، وسبقت أهل عصرك في حسن معاني الشعر، وتهذيب ألفاظه؟

فقال: لأني لم أقبل كل ما تورد على قريحتي، ويناجيني ويبعثه

---

١ ـ صيد الخاطر لابن الجوزي ص٦٠٥.

٢ ـ ٣ـ ٤ زهر الآداب للحُصْري القيرواني ١٥٤ ـ ١٥٥.

فكري، ونظرت إلى مغارس الفِطن، ومعادن الحقائق، ولطائف التشبيهات؛ فسرت إليها بفهم جيد، وغريزة قوية؛ فأحكمت سَبْرَها، وانتقيت حُرَّها، وكشفت عن حقائقها، واحترزت من متكلَّفها، ولا والله ما ملك قيادي قطُّ الإعجابُ بشيء مما آتي به».[١]

«وكان قَلَمُ ابن المقفع يقف كثيراً؛ فقيل له في ذلك، فقال: إن الكلام يزدحم في صدري، فيقف قلمي؛ ليتخير».[٢]

وقال أبو هلال العسكري رحمه الله: «فإن ابتليت بتكلف القول، وتَعَاطِي الصناعة، ولم تسمح لك الطبيعة في أول وهلة، وتعصَّى عليك بعد إجالة الفكرة ـ فلا تعجل، ودعْهُ سحابة يومك ولا تضجر، وأمهله سواد ليلتك، وعاوده عند نشاطك؛ فإنك لا تعدم الإجابة والمواتاة إن كانت هناك طبيعة، وجريت من الصناعة على عِرْق».[٣]

وقال مبيناً فضل التنقيح، والمراجعة، وإعادة النظر: «وقد كان هذا دأب جماعة من حُذَّاق الشعراء من المحدَثين والقدماء، منهم زهير، كان يعمل القصيدة في ستة أشهر ويهذِّبها في ستة أشهر، ثم يُظْهِرها؛ فتُسَمَّى قصائده الحوليات لذلك.

وقال بعضهم: خير الشعر الحولي المنقَّح؛ وكان الحطيئة يعمل

---

١ ـ زهر الآداب ص١٥١.

٢ ـ زهر الآداب ص١٥٤.

٣ ـ كتاب الصناعتين ص١٣٥.

القصيدة في شهر، وينظر فيها ثلاثة أشهر ثم يُبرزها.

وكان أبو نواس يعمل القصيدة ويتركها ليلة، ثم ينظر فيها فيُلقي أكثرها ويقتصر على العيون منها؛ فلهذا قصر أكثر قصائده.

وكان البحتري يُلقي من كل قصيدة يعملها جميع ما يرتاب به فخرج شعره مهذباً.

وكان أبو تمام لا يفعل هذا الفعل، وكان يرضى بأول خاطر فنعي عليه عيب كثير.

وتخيُّر الألفاظ، وإبدالُ بعضها من بعض يوجب التئام الكلام؛ وهو من أحسن نعوته وأزين صفاته». [(١)]

٢٩- التثبت في النقل، والتروي في إبداء الرأي

وهذا قريب مما مضى؛ فلا ينبغي للكاتب أن يكون حاطب ليل يكتب كل ما خطر بباله، ويتسرع في إبداء رأيه، وإصدار أحكامه.

بل يجب عليه أن يتثبَّت في نقله، ويحسن به أن يتأنى في إبداء آرائه، فالعاقل اللبيب لا يتكلم في شيء إلا إذا تثبَّت من صحته؛ فإذا ثبت لديه ذلك نَظَرَ في جدوى نشره؛ فإن كان في نشره حفز للخير، واجتماعٌ عليه نشره، وأظهره، وإن كان خلاف ذلك أعرض عنه، وطواه.

---

١ ـ كتاب الصناعتين ص١٤١.

ولقد جاء النهي الصريح عن أن يُحَدِّث المرء بكل ما سمع، قالﷺ: «**كفى بالمرء كذباً أن يُحَدِّث بكل ما سمع**»[١].

وقد عقد الإمام مسلم رحمه الله في مقدمة صحيحه باباً سمَّاه «باب النهي عن الحديث بكل ما سمع» وساق تحته جملة من الآثار منها الحديث السابق، ومنها ما رواه بسنده عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «**بحسب المرء من الكذب أن يُحَدِّث بكل ما سمع**»[٢].

وقال مسلم رحمه الله: حدثنا محمد بن المثَّنى قال: سمعت عبدالرحمن بن مهدي يقول: «لا يكون الرجل إماماً يُقتدى به حتى يمسك عن بعض ما سمع»[٣].

ويتعين هذا الأدب في وقت الفتن والملمات، فيجب على المسلم أن يتحرى هذا الأدب؛ حتى يقرب من السلامة، وينأى عن العطب. قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاتَّبَعْتُمْ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ (النساء:٨٣).

قال الشيخ العلامة عبد الرحمن السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية:

«هذا تأديب من الله لعباده عن فعلهم هذا غير اللائق، وأنه ينبغي

١ـ مسلم (٥) في مقدمة صحيحه.

٢ـ مسلم (٥) في مقدمة صحيحه.

٣ـ مسلم (٥) في مقدمة صحيحه.

لهم إذا جاءهم أمر من الأمور المهمة، والمصالح العامة مما يتعلق بالأمن، وسرور المؤمنين أو بالخوف الذي فيه مصيبة عليهم ـ أن يتثبتوا، ولا يستعجلوا بإشاعة ذلك الخبر، بل يردونه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم: أهل الرأي، والعلم، والنصح، والعقل، والرزانة، الذين يعرفون الأمور، ويعرفون المصالح وضدها.

فإذا رأوا في إذاعته مصلحة ونشاطاً للمؤمنين، وسروراً لهم، وتحرزاً من أعدائهم ـ فعلوا ذلك، وإن رأوا ما ليس فيه مصلحة، أو فيه مصلحة، ولكن مضرته تزيد على مصلحته لم يذيعوه، ولهذا قال ـ سبحانه ـ: ﴿لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ أي يستخرجونه بفكرهم وآرائهم السديدة، وعلومهم الرشيدة.

وفي هذا دليل لقاعدة أدبية، وهي أنه إذا حصل بحث في أمر من الأمور ينبغي أن يولى من هو أهل لذلك، ويجعل إلى أهله، ولا يُتقدم بين أيديهم؛ فإنه أقرب إلى الصواب، وأحرى للسلامة من الخطأ.

وفيه النهي عن العجلة والتسرع لنشر الأمور من حين سماعها، والأمرُ بالتأمل قبل الكلام، والنظر فيه هل هو مصلحة؛ فيقدم عليه الإنسان، أم لا؛ فيحجم عنه؟»(١).

ثم إن اللائق بالكاتب العاقل أن ينظر في العواقب، وأن يراعي المصالح؛ فلا يحسن به أن يبدي رأيه في كل صغيرة وكبيرة، ولا يلزمه

١ـ تيسير الكريم المنان في تفسير كلام الرحمن للسعدي ص١٥٤.

أن يتكلم بكل نازلة؛ لأنه ربما لم يتصوَّر الأمر كما ينبغي، وربما أخطأ التقدير، وجانب الصواب، بل ليس من الحكمة أن يبدي الإنسان رأيه في كل ما يعلم حتى ولو كان متأنياً في حكمه، مصيباً في رأيه؛ فما كل رأي يُجهر به، ولا كل ما يعلم يقال، ولا كل ما يصلح للقول يصلح أن يقال عند كل أحد، أو في كل مكان أو مناسبة.

وإذا أراد أن يبدي ما عنده فليكن بتعقل، وروية، ورصانة، وركانة، وزكانة.

٣٠- الحذر من إملاءات الأحوال الخاصة، والظروف العامة

فالكاتب العاقل الحصيف المخلص يدرك شأن الكتابة، ويستحضر خطرها، ويستشعر عظيم أثرها؛ فتراه -وقت كتابته- لا يستسلم لأحواله الخاصة، والعوارض التي تعتريه، من فرط غضب أو رضاً، أو استحسان أو استهجان، أو رغبة أو رهبة، أو ما جرى مجرى ذلك؛ لأنه إذا استسلم لذلك، فكتب حسب ما تمليه عليه حاله الحاضرة، ثم هدأت نفسه، وسكنت ريحه، واستقرت حالته - ندم ندامة الكُسَعي بعد أن سارت كتابته مسير الشمس.

ولا يستسلم الكاتب العاقل - كذلك - لما يحيط به؛ فيكتب ما تمليه عليه الظروف لا الحقائق، فيلبس الحق بالباطل، ويصور المعروف بصورة المنكر، ويجحد لأحد فضلاً وهو يراه رأي العين، أو يشهد لأحد باستقامة السيرة وهو يراه منحرفاً عن سواء السبيل.

بل تراه لا يكتب إلا وفْقَ ما يمليه عليه دينه، وإخلاصه،

وأمانته، ونزاهته، مستشعراً وقوفه بين يدي ربه، مستحضراً شهادة التاريخ عليه؛ فذلك من أعظم ما يردع قلم الكاتب عن أن يقلب الحقائق، أو يكسوها لوناً غير لونها؛ إرضاءً لشخص أو طائفة؛ فلا يُخشى منه أن يناوئ الحق، أو يلبسه شيئاً من الباطل ولو أمطر عليه أشياع الباطل فضة أو ذهباً.

قال العلامة الشيخ محمد البشير الإبراهيمي رحمه الله مشيراً إلى شيء مما مضى: «ولأن يسكت العاقل مختاراً في وقت يحسن السكوت فيه خيرٌ من أن ينطق مختاراً في وقت لا يحسن الكلام فيه».[1]

وقال: «وكلُّ نَطْقَةٍ تمليها الظروف لا الضمائر تثمر سكتة عن الحق ما من ذلك من بد».[2]

وقال: «أما وظيفة السيف والرمح فهي الإنكاء في العدو، الإنكاء في العدو هو الغاية التي تنتهي إليها شجاعة الشجاع.

كذلك حملة الألسنة والأقلام يجب أن يكونوا؛ ليحققوا التشبيه الذي تواطأت عليه الأمم؛ فلتأتِهم المصائب من كل صوب، ولتنزل عليهم الضرورات من كل سماء، وليخرجوا من كل شيء إلا شيئين: القلم، واللسان؛ إن بيع القلم، واللسان أقبح من بيع الجندي لسلاحه».[3]

---

١ - عيون البصائر ص١٧.

٢ - ٣ عيون البصائر ص١٨.

٣١- العناية بوضع التاريخ

والمقصود بذلك تاريخ الكتابة؛ فيحسن بالكاتب إذا انتهى من تحرير ما يريد أن يضع في خاتمته تاريخ اليومِ الذي فرغ فيه من الكتابة؛ فلكتابة التاريخ فوائد كثيرة، منها معرفة السابق من اللاحق من الكُتَّاب، ومعرفة الناقل من المنقول عنه.

ومن فوائد ذلك معرفة الأطوار التي يمر بها الكاتب إذا أراد أحدٌ دراستَه، وإلقاءَ الضوءِ على مؤلفاته، ومعرفة آخر أقواله، وما استقر عليه رأيه.

وقد يكتب كلاماً، أو يبدي رأياً في بواكير حياته، ثم يسير ذلك الرأي في الناس، ثم يتراجع عنه في طبعة أخرى، فإذا لم يَضَعِ التاريخ فإنه ربما يوقع في الإشكال، فلا يعلم ما انتهى إليه من الأقوال.

قال بعض الكُتَّاب: «التاريخ عمود اليقين، ونافي الشك، وبه تعرف الحقوق، وتحفظ العهود»[(١)].

وقيل: «الكِتَابُ بغير تاريخ نكرة بلا معرفة، وغُفْلٌ بلا سمة»[(٢)].

ولأهمية التاريخ كانت الأمم توليه عناية فائقة؛ وكان لكل أمة تاريخٌ يخصها، ويميزها عن غيرها.

قال أبو بكر الصولي رحمه الله: «ولكل نُبَّوة ومملكة تاريخ؛ فأما العرب فكانوا يؤرخون بالنجوم قديماً؛ وهو أصل، ومنه صار الكُتَّاب يقولون: نجمت على فلان كذا؛ حتى يؤديه في نجوم.

---

١ ـ ٢ أدب الكُتَّاب ص١٨٤.

وأَنْجُمَةٌ جمع نجوم، والعرب تخص بالنجم الثريا، يقولون: إذا طلع النجم يريدون الثريا ومنه قولهم:

طلع النجم غَديَّه فابتغى الراعي كسيَّه

والنجم بعد هذا سائر النجوم يدل الواحد على جميعها كما يقال: أهلك الناس الدينار والدرهم يراد الجنس.

وعلى هذا قرأ أبو عمر بن العلاء: ﴿وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ﴾.

والنجم ما نجم من النبات، ومن الرأي ما ظهر وهو غير هذا.

وكانت العرب تؤرخ بكل عام يكون فيه أمر مشهود متعارف؛ فأرَّخوا بعام الفيل، وفيه ولد النبي ﷺ وكان في السنة الثامنة والثلاثين من ملك كسرى أنوشروان.

وأرَّخت العرب بعام الخُنان؛ لأنهم تماوتوا فيه، وعظم عندهم أمره؛ فقال النابغة الجعدي:

فمن يك سائلاً عني فإني من الشبان أيام الخُنان[1]

مضت مائة لعام ولدت فيه وعشر بعد ذاك وحجتان

وأرخت قريش بموت هشام بن المغيرة المخزومي؛ لجلالته فيهم، ولذلك قال شاعرهم:

---

١ ـ قوله أيام الخنان: قال السيد المرتضى أيامٌ كانت العرب قد هاج بها فيهم مرض في أنوفهم وحلوقهم. انتهى. =

وأصبح بطن مكة مقشعراً كأن الأرض ليس بها هشام

وروي عن الزهري والشعبي أن بني إسماعيل أرَّخوا من نار إبراهيم ـ عليه السلام ـ إلى بنائه البيت حين بناه مع إسماعيل، وأن بني إسماعيل أرَّخوا من بنيان البيت إلى تفرق مَعَد، ثم كانوا يؤرِّخون بشيء شيء إلى موت كعب بن لؤي، ثم أرَّخوا بعام الفيل إلى أن أرَّخ عمر بن الخطاب ﷺ من هجرة النبي ﷺ.

وكان سبب ذلك أن أبا موسى كتب إليه: «أنه يأتينا من قبل أمير المؤمنين كتب ليس لها تاريخ، فلا ندري على أيها نعمل».

ورُويَ ـأيضاًـ أنه قرأ صكاً محلُّه شعبان، فقال: «أي الشعابين الماضيَ أم الآتي.

فكان سبب التأريخ من الهجرة، بعد أن قالوا: نؤرخ بعام الفيل، وقالوا: من المبعث، ثم أجمع الرأي على الهجرة.

وقالوا: ما يكون أول التاريخ؟

فقال بعضهم: شهر رمضان، وقال بعضهم: رجب؛ فإنه شهر

= قال محقق الكتاب العلامة محمد بهجة الأثري: «المعروف أن الخنان ـعلى وزن غراب ـ: زكام يأخذ الإبل في مناخرها وتموت منه».

وقال الأصمعي: كان الخنان داء يأخذ الإبل في مناخرها وتموت منه.

وكان في عهد المنذر بن ماء السماء، وكانوا يؤرخون بها، كذا في كتب اللغة، ورواية التاج في البيت:

فمن يحرص على كبري فإني من الشبان أيام الخنان

حرام، والعرب تعظِّمه، ثم اجمعوا على المحرم، فقالوا: شهر حرام، وهو مُنْصَرف الناس من الحج.

وكان آخر الأشهر الحرم؛ فصيروه أولاً؛ لأنها عندهم ثلاثة سرد ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، والفرد رجب؛ فكانت الأربعة تقع في سنتين؛ فلما صار المحرم أولاً وقعت في سنة»[١].

ومما يحسن التنبيه عليه أن يحرص الكاتب المسلم على التاريخ الهجري، وألا يعدل عنه إلى غيره؛ لأنه تاريخ أهل الإسلام، ومما يتميزون به عن غيرهم من الأمم.

٣٢- عرض الكتابة على الآخرين

لأخذ رأيهم، والاستماع إلى ملحوظاتهم؛ فذلك أدعى لإحكام الكتابة، والاطمئنان إليها خصوصاً إذا عُرضت على ذوي علم، ونظر، وبصيرة، وتخصص، وخبرة بالأساليب الراقية.

ويتأكد هذا الأمر في البدايات، أو عند إرادة الكتابة في أمر خطير، أو نازلة من النوازل التي لها شأنها؛ فيحسن بمن أراد الكتابة في مثل هذه الشؤون أن يتريث، ويتأنى، ويعرض عقله على الأكابر الذين ينظرون في المآلات؛ فإن أبى إلا الاستبداد في ذلك فإنه إلى الخطأ أقرب منه إلى الصواب.

---

١ ـ أدب الكتاب ص١٧٨ـ١٨٠.

٣٣- معرفة قدر النفس، وانشراح الصدر للنقد

فإذا وفَّق الله الكاتب لإظهار ما عنده ـ فليوطِّن نفسه على ما يُقال فيه.

قال الجاحظ: «من صنف فقد استَهْدَف[١]، فإن أحسن فقد استَعطف، وإن أساء فقد استَقْذَف[٢]»[٣].

فليعرفْ الكاتب ـ إذاً ـ قدر نفسه، ولا يَطِشْ به مدح المادحين في زهو، ولا ينزل به قدح القادحين في حسرة.

ثم لينشرح صدره للنقد الهادف، بل عليه ألا ينزعج من النقد الظالم؛ لأن ذلك دليل على علو كعبه، وتأثير كلامه.

ولا يعني ذلك أن يكتب ما هب ودب، ثم إذا كثر انتقاده ظن ذلك دليلاً على مكانته، وإنما المقصود أن يمر بالخطوات الماضية، وأن يشهد له أهل الفضل والعلم بالتقدم، فإذا قيل فيه ـبعد ذلك ما قيل ـ فليأخذ بما مضى، وليدرب نفسه على استقبال ما يَردُ عليه من ملحوظات، أو تعقبات؛ فالنقد الهادف حياة المجتمعات، والمُنْتَقَدُ يرتفع قدره إذا تَقَبَّل النقد بقبول حسن؛ فذلك دليل سعة صدره، وسلامة قصده، وكِبَر نَفْسِه.

أما أصحاب النفوس الصغيرة فلا يرون النقد إلا من زاوية

---

١ ـ استهدف: صيَّر نفسه هدفاً لسهام النقد.

٢ ـ استقذف: عرض نفسه للقذف.

٣ ـ زهر الآداب ص١٨٣.

ضيقة ، ولا يريدون لأعمالهم إلا أن تقابل بالإعجاب ، والإطراء ، وكأنها وحي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

وبعدُ فهذه أصول عامة مهمة لصناعة الكتابة ، وأسباب الترقي بها ، وجَعْلِها نافعة خالدة ـ بإذن الله ـ.

الفهرس

المقدمة ٣

ما جاء في وصف القلم وتعظيم شأن الكتابة ٧

أسباب الارتقاء في الكتابة ١٧

١- حفظ القرآن الكريم، والإكثار من تلاوته وتدبره ١٧

٢- الإكثار من مطالعة كتب السنة ١٩

٣- مطالعة دواوين العرب في الشعر، وحفظُ ما تيسر منها ١٩

٤- العلم بالنحو والصرف ٢٠

٥- العلم بفقه اللغة ٢٧

٦- معرفة البلاغة، والوقوف على أسرار البيان العربي............ ٣٨

٧- معرفة الإملاء، ومراعاة علامات الترقيم ٤٥

٨- الاطلاع على الكتب التي تعنى بصناعة الكتابة.............. ٤٥

٩- الوقوف على أمثال العرب........................ ٤٧

١٠- معرفة أيام العرب والوقائع........................ ٥١

١١- الحرص على الأخذ من كل فن بطرف ٥٢

١٢- الاطلاع على كتابات أرباب البيان ٥٣

١٣ - سلامة الذوق، ومراعاة مقتضيات الأحوال............ ٦٦
١٤ - البعد عن لغة التعالي والاستفزاز...................... ٦٨
١٥ - نبل الهدف، وسلامة القصد ٧٠
١٦ - مراعاةُ أصول النقد وقواعده ٧١
١٧ - مراعاة العدل، وعامل الزمان والمكان حال الرد.......... ٧٣
١٨ - لزوم الاعتدال ٧٦
١٩ - توظيف الثقافة والمعارف لخدمة الموضوع ٧٩
٢٠ - العلم بموطن الشاهد، وإيراد النقول في مواطنها المناسبة . ٩٢
٢١ - الاهتمام بحسن الافتتاح، وجودة المطلع،
وبراعة الاستهلال ٩٣
٢٢ - العناية بحسن الختام.............................. ١٠٠
٢٣ -اختيار الورق الجيد، والقلم المناسب ١٠٠
٢٤ - العلم بما يكتب.................................. ١٠١
٢٥ - مراعاة أغراض الكتابة والتأليف........................ ١٠٤
٢٦ - الحذر من الاستسلام للتثبيط ١٠٤
٢٧ - مراعاة أدب النفس.................................. ١١٠
٢٨ - تخمير الكتابة...................................... ١١١

٢٩- التثبت في النقل، والتروي في إبداء الرأي.............. ١١٤
٣٠- الحذر من إملاءات الأحوال الخاصة، والظروف العامة... ١١٧
٣١- العناية بوضع التاريخ.............................. ١١٩
٣٢- عرض الكتابة على الآخرين ١٢٢
٣٣- معرفة قدر النفس، وانشراح الصدر للنقد............ ١٢٣
٣٤- **الفهرس** ١٢٥